

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

المجتمع المريض

The Sick Society



Dr. Naguib Al Keilany

روايات
د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



المجتمع المريض
The Sick Society



دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني

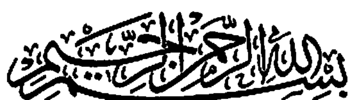
Design by Abdul Rahman Magdy

المجتمع المريض

الكِتَابُ الفَائِزُ بجَائِزَةِ وزَارَةِ التَّربِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ

تأليف

د. نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2015م

رقم الإيداع

2015/13317

الترقيم الدولي

978-977-255 - 464 - 5



الصحوة

ALSAHOH

القاهرة - تليفاكس: 0020242146060

موبيل: 00201114520485

daralsahoh@gmail.com

مقدمة



إن المجتمع الكبير -مجتمع بلادنا- يشتمل على مجتمعات صغيرة مترابطة كل مجتمع منها له سماته ودلالاته الخاصة، وكل هذه المجتمعات تتفاعل مع بعضها فيؤثر أحدهما في الآخر بطريقة ما، ولا شك أن اعتلال واحد منها أو انحرافه سيكون له عميق الأثر فيما عداه، تمامًا مثل جسم الإنسان الذي يتكون من أجهزة مختلفة لكل جهاز منها وظيفته المنوطة به، وإصابته بأي ارتباك سوف ينعكس على باقي الأجهزة بوجه عام، ويظهر ذلك واضحًا جليًا في حالة الجسم وسلوكه وحيويته.

ومجتمع السجون ما هو إلا وحدة اجتماعية تنضوي تحت لواء المجتمع الكبير، مشابهًا في ذلك أحد أجهزة الجسم، غير أن مجتمع السجون مجتمع معتل سقيم.

ولقد حاولت قدر الإمكان أن أسجل لهذا المجتمع المريض ظروفه الخاصة، وقيمه المتعارف عليها، ومشكلاته العديدة، معتمدًا في دراساتي على عنصرين أساسين هما(1):

---

(1) حبذنا في بحثنا هذا «الاتجاه التكاملي» المعروف في النظريات العقابية وتفسير الجرائم.

(أ) المشاهدة..

(ب) التجربة.

ولقد كان لطول المدة التي قضيتها بين المجرمين، ومحاولة التغلغل في أعماق حياتهم وأفكارهم وتصرفاتهم، مدى بعيد في محاولة الاستفادة من عنصري المشاهدة والتجربة أثناء دراساتي فضلًا عن أن الثقة التي يكتسبها الدارس بطول المعاشرة، تكشف الكثير عن غوامض حياة المجرمين واتجاهاتهم. لهذا كان أهم مرجع في هذه الدراسات هي الخبرة الشخصية، ومن الأمانة العلمية أن نشير إلى بعض المراجع المهمة التي رجعنا إليها في بعض النقاط مثل كتاب «علم النفس الجنائي علمًا وعملًا» للأستاذ محمد فتحي، وكتاب«كفاح الجريمة» للأستاذ محمد شاهين، وكتاب «عالم السدود والقيود» للأستاذ عباس العقاد، وقرارات مؤتمر جنيف بشأن الجريمة، وملحق لتقرير عن البعثة الأولى لمصلحة السجون لدراسة النظم العقابية والإصلاحية بالولايات المتحدة وويلز عام 1955م، والنشرات الدورية والتقارير التي تعدها مصلحة السجون، وكتاب «علم النفس الاجتماعي» لدكتور فؤاد البهي السيد، وبعض المقالات المتناثرة في الصحف والمجلات، غير أننا نعود ونسجل الحقيقة المشار إليها آنفًا، وهي أن خبرتنا الشخصية، ودراساتنا الخاصة كان عليها المعول الأكبر.

ولا شك أننا في فترة مهمة من فترات تاريخنا القومي، ويجدر بنا في هذه الحقبة أن نحدد معالم شخصيتنا، وندرس سماتها ومعالمها واعوجاجها وما يعرقل نموها أو يحد من نشاطها وما يدفعها إلى الأمام في طريق التقدم والإصلاح والسعادة.

وقد يكون في هذه الدراسات بعض الصور القاتمة المخجلة التي تتعلق بحياة هذا المجتمع المريض -مجتمع السجون- وقد يكون بعض هذه الصور مخالفًا لما تذيعه الدعايات، ولكن لا بأس من ذلك لأننا -وقد تحرينا الدقة والصدق- نعتقد أن في الكشف عن بعض الأوضاع المؤلمة فائدة كبرى، ونفعًا عظيمًا، لأن ذلك سيكون مدعاة لبذل مجهود أكثر في مجال الإصلاح والعلاج، حتى يسلم مجتمعنا من الشذوذ، وينجومن السلوك المنحرف، وينتصر على عوامل الفساد والجريمة ويقضي عليها، ولا شك أن حسن النية وسلامة القصد، ونبل الغاية، بشير بالنجاح المرتقب.



ونحن في هذا الكتاب لم نكتف بالدراسة الاجتماعية البحتة، وعرض المشاكل الخاصة بهذا المجتمع المريض، بل عرجنا على العلاج الواجب، وسردنا بعض الآراء الخاصة بإصلاح ما يعتور هذا المجتمع من نقص في قيمه ومفاهيمه وسلوكه، فكنا بذلك كالطبيب الذي يشخص الداء بعد الدرس والتمحيص، ثم يضع العلاج اللازم وبذلك تكون الفائدة أعظم، والنفع أشمل وأعم،

ونكون بذلك قد سددنا ثغرة مهمة من الثغرات التي تعتور مجتمعنا الناهض المكافح.

ومع ذلك فإني أؤمن بأن هذه الدراسات ما زال فيها مجالات أخرى لغيري قد يجد أكثر مما وجدت، ويستنتج أكثر مما استنتجت.

وإني لأرجو أن يجد القارئ في هذه الصفحات ما يشبع نهمه ويروي ظمأه فيما يختص بهذا المجتمع -مجتمع الجريمة- وخاصة وأننا قد حاولنا أن نحيط بأكثر نواحي السجون من مثل، وفنون، ونظريات عقابية، وأثر الدين والعلم في نفسية المجرم.. و.. و..إلخ كل ذلك بطريقة تجمع بين الشواهد والقصص والسرد حتى لا تكون دراساتنا جامدة مملة.

والله نسأل أن يهبنا التوفيق والسداد.

المؤلف

الفصل الأول
مجتمع له قِيمهُ الخاصة

أول لقاء



حينما قطعت الفناء الواسع -فناء سجن القاهرة- قصدت فورًا عنبر «ج» وفتحت البوابة فدلفت إلى داخل العنبر، لكني توقفت فجأة وقد استولت عليّ الدهشة، وتولاني العجب، إذ رأيت إنسانًا يقف عاريًا -كما ولدته أمه- لا يستر سوءتيه بشيء على الإطلاق، مع أن برد الشتاء كان يجمد أطرافي، فصحت بالسجان المرافق لي:

- «ما هذا؟؟»

فردّ عليّ السجان دون أن يبدو عليه أدنى اكتراث:

- «دا (ع.أ) المجنون».

وسرعان ما أخذت دهشتي تذوب وتتلاشى، لكن وثب إلى ذهني سؤال:

فقلت للسجان:

- «ولماذا تتركون المساجين المجانين هنا داخل السجن؟؟ أما كان من الأرفق والأرحم بهم أن ترسلوهم إلى مستشفى الأمراض العقلية، فتحققوا من وراء ذلك هدفين: أولهما

وضعهم تحت العلاج اللازم، والثاني هو إراحة باقي المسجونين من الضجة والقلق الذي يسببه لهم أمثال هذا المجنون؟؟».

فقهقه السجان ساخرًا من كلامي وقال:

- «إن اسمه الحقيقي «ع. أ. ج»، أما «ع. أ. المجنون» هو اسم الشهرة لا غير وهو ليس مجنونًا كما تتصور.

فعادت إليّ دهشتي أكثر مما كانت وقلت:

- «وإذن فما سر وقوفه عاريًا هكذا؟؟».

- ابن .. سوابق.. وكلما تشاجر مع أحد المسجونين، أو أهانة أحد من السجانين، أو كان له مطلب لم يتحقق بادر إلى التعري من ملابسه ليبدأ معركة، أو يعلن احتجاجًا..».

- «إذن فهو في شجار مع إنسان ما الآن..».

- «بالطبع..»

وظلت صورة ذلك الإنسان العجيب عالقة بذهني، مثل صور كثيرة غيرها لا يمكن أن تنسى، فقد علمت بعد أن عاشرت المسجونين وآكلتهم وشاربتهم وحادثتهم، أن مجتمعهم مجتمع خاص له سمات معينة، وصفات معروفة لديهم، لا تثير في نفوس النزلاء كثيرًا من النفور أو الاشمئزاز لأنها مألوفة كثيرة التكرار وتبين لي أن مجتمع السجون له قيمه المتعارف عليها، هو كأي مجتمع له عقله الجمعي[1] الذي يضع القواعد والأصول

---

(1) انظر كتاب «الأسرة والمجتمع» للدكتور علي عبد الواحد وافي.

التي يسير على هديها المجموع، وهذه القيم أو القواعد، قد وضعتها نفوس وارتضتها عقول منحرفة، وأجازتها مقاييس مختلفة فيها كثير من الشذوذ، والخروج على النسق الطبيعي الذي نراه في المجتمعات العادية، ولا غرابة في ذلك، لأن مجتمع السجون قد تشبع بالجريمة، ومارس ألوانها المختلفة، ومن المجرمين من اتخذ الجريمة عادة أو صنعة حتى أصبحت حياته بدونها خواءً وفراغًا مملًا..

وقد يتساءل سائل: إن هناك حقائق وأمورًا واضحة للعيان لا يختلف في بداهتها اثنان، فكيف يتنكر أرباب الجرائم لمثل هذه الحقائق، ويقلبونها ويسيرون على النقيض منها؟؟ ولوعلم هذ السائل الظروف التي نشأ في ظلها هؤلاء المجرمون، ولوتغلغل إلى أعماق نفوسهم المعقدة، ونوع التربية والمثل التي درجوا عليها لأيقن أنه لا غرابة فيما نراه من (ع.أ.ج) وعشرات غيره.

وسوف نتعرض لبعض هذه القيم المشار إليها آنفًا في السطور التالية:

(أ) مخالفة اللائحة واجب:

إن أغلب المسجونين -وخاصة أرباب السوابق ومعتادي الإجرام والذين لا يحظون بأي قسط من التعليم -ينظرون إلى المشرفين على شئونهم من ضباط وسجانين وغيرهم نظرة عداء وحقد، فهم لا يريدون أن ينظروا إلى الجهاز الإداري على أنه الحارس الرسمي لقوانين السجن، والمنفذ لها باسم الدولة،

والقائم بواجب منوط به لا يستطيع أن يتهاون فيه وإلا تعرض للعقاب أو المآخذة..

إن المسجونين لا ينظرون أبدًا مثل هذه النظرة إلى رؤسائهم، لأنهم يعتقدون أن الإداريين ما وجدوا بينهم إلا ليذيقوهم الهوان، ويؤرقوا عليهم حياتهم، ويحرموهم مما يشتهون.

والسبب في ذلك هو «الممنوعات».

«والممنوعات» كلمة لا يجهلها أحد من النزلاء، فالسجن لا يباح فيه كل ما يباح خارجه، ولقد اقتضت عقوبة سلب الحرية، وضمان الأمن في السجن منع كثير من الأشياء عن المسجون، فارتضت اللائحة زيًا معينًا، وطعامًا في نطاق معلوم. وترفيها لا يخرج عن حيز خاص، فلا يباح مثلًا إيقاد النار داخل الحجرات، كما كان لا يباح التدخين في الماضي، والمراسلات الصادرة والواردة لها نظمها الخاصة، والإتجار بين المسجونين أنفسهم أمر غير مسموح به، والاحتفاظ بالآلات الحادة التي يخشى من وجودها أمر يعاقب عليه القانون..

وتداول النقود ممنوع أيضًا..

هذه الأشياء وما شاكلها هي التي تسمى بالممنوعات..

ويحلل الأستاذ عباس العقاد مشكلة تهريب الممنوعات بقوله: «وليس التهريب في السجون بالشيء الهين، ولا بالمطلب اليسير، لأنه هو الدفاع الوحيد الذي ينتقم به المسجونون من

الأسوار والقيود والحراس، هو فسحة الحرية الباقية لمن فقدوا الحرية، فعليه تنصب جميع الجهود والحيل والخبائث، وله وحده تجارة واسعة النطاق، تجري على معاملات خاصة، ولغة خاصة ومواصلات خاصة..».

والنـزلاء يحـاولون بـشتى الطـرق، ومختلـف الأسـاليب، والحـصول عـلى مـا يريـدون فيعرضـون أنفـسهم للاصـطدام بـاللوائح والقـوانين التـي تقـف لهـم بالمرصـاد ممثلـة في أشـخاص المشرفين عليهم، والقائمين بأمورهم، فإذا ما أراد القانون أو من يمثلونـه توقيـع العقـاب عـلى المخـالفين، اتهمهـم المـسجونون بـالظلم والطغيـان والتعـسف، ورمـوهـم بكـل رذيلـة ونقيـصة.. ونظروا إليهم نظرة العداء والكراهية.

وقفـت بـالقرب مـن بعـض نـزلاء سـجن القنـاطر الخيريـة، فسمعتهم يفاضلون بين سجن وسجن، ويثنون الثناء العاطر على سجن آخر.. قال أحدهم:

-«كنت في ليمان أبوزعبل» في الحبسة الثالثة.. وكان سعادة البيه المأمور يجيب لي الشاي بنفسه، ويقول لي خد يا عبد الباسط عشان تترزق، وأنا كمان قلت للدكتور يكتب لك على سكرّ..».

فيرد عليه زميل آخر:

- «أهي دي السجون ولّا بلاش..»

- «عليّ الطلاق يا رجاله من مراتي دا حصل..»

يدور هذا الكلام فيما بينهم، وكثيرًا ما يكون مثل هذا الحديث من نسيج الخيال، ولعلها أحلام يريدونها أن تتحقق، وهم يختلقون هذه المزاعم والأكاذيب ليحشوا بها رءوس زملائهم، ويشحنوها بالحقد والكراهية، وينفثوا بها عما في نفوسهم من كبت وآلام وفوران.

ومعظم أحاديث النزلاء تدور حول الإدارة في السجن، وحول بعض زملائهم الذين تصدوا لها، فلم يحنوا رءوسهم لوعد أو وعيد ولم يعبأوا بالرتب العالية، أو التهديد بالجلد أو التأديب..

هذه المشكلة -مشكلة مخالفة اللوائح والتصدي للإداريين- مشكلة قديمة كانت على أشدها حينما كانت السجون في الماضي تعيش كالقمقم حيث الظلام والقسوة والإرهاب، وحيث آلام الغربة والوحدة والجفاف، وحيث الإرهاق الجسدي في العمل، والإيذاء الروحي والبدني..

والمعروف -كما في الإحصائيات- أن غالبية المسجونين من ذوي الثقافات الضئيلة أو المنعدمة، لهذا فإن نظرتهم إلى حقيقة العلاقة القائمة بينهم وبين الإداريين نظرة سطحية، لا تدرك سوى أن السجانين هم الذين يوقعون العقاب، وهم الذين يقفون في وجه استيراد الممنوعات ظلمًا وعدوانًا، وهم الذين يقومون بالتفتيش وضبط المخالفات، وما إلى ذلك..

بذلك أصبح الإداريون جبهة.. وأصبح النزلاء جبهة أخرى مضادة لهم، فقامت عندئذ العداوات، وتحدثوا عن البطولات المزعومة والصراع الرهيب في هذه المعركة الوهمية بين النزلاء والإداريين، وأصبح التصدي للقوانين واللوائح، والصدام مع الهيئة التنفيذية واجبًا تفرضه الرجولة، وتقره الكرامة والشهامة..

(ب) التمارض واصطناع العاهات فن :

لا أستطيع ما حييت أن أنسى ذلك الشاب الفارع الطول «صلاح». لأن مأساته قد تركت في قلبي جراحًا غائرة، ففي أحد الأيام صعد إلى أحد الأدوار العليا في العنبر، ثم قذف بنفسه فوق أحد الضباط، فأخطأه ثم سقط على الأرض.. لكنه لم يمت.. كل ما حدث أن ساقيه قد فقدتا الحركة إلى الأبد، ثم أخذتا في الضمور يومًا بعد يوم، حتى أصبحت رفيعة جدًا، وأصبح صلاح مقعدًا لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا على كتفي أحد زملائه، ولا يستطيع أن يقضي حاجته إلا على وضع مُبْكٍ..

كذلك لن أنسى «ع.أ» الذي وضع «الكوبيا» في إحدى عينيه فالتهبت وتورمت، ثم فقدت النور إلى الأبد، ولما رأيته وأظهرت له ألمي وإشفاقي من أجل عينه الضائعة، ضحك وكشف لي عن ذراعيه وساقيه فوجدت فيها آثار جراح قديمة كبيرة، قد شوهتها تمامًا، وإن كان ما زال قادرًا على الحركة والمشي، وما زال يستمتع ببنيته القوية في السجن..

ثم ذلك المسجون الذي قطع جزءًا حساسًا من جسمه «بالموسى» حتى يلصق بحرَّاسه تهمة هم منها براء..

ثم (ع.أ) المجنون، ذلك السجين المشهور، الذي يقف بكل جسارة واستهتار ليمزق جبهته وبشرة بطنه بشفرة الحلاقة التي يحصل عليها خلسة من أي طريق.

وأولئك الذين يحقنون أنفسهم بمختلف السوائل والمحاليل كاللبن والكيروسين وغيرهما كي يحدثوا عاهات أو آثارًا مختلفة في أبدانهم وهناك صنف آخر من المسجونين يتصنع الجنون، أو يتصنع بعض الأمراض الأخرى، فمثلًا (ع.أ) المجنون -تلك الشخصية العجيبة- استطاع أن يصطنع قرحة مشابهة لقرحة الزهري والسجين الذي أمكنه أن يحصل على عينة بصاق من أحد زملائه تحتوي على جراثيم السل، «والسجين ح» استعار من أحد زملائه عينة «بول» دم وصديد وزلال، وآخر استطاع أن يتصنع الشلل ثلاث سنوات.. و..و.. إلخ.

إن تصنع العاهات وجلب العلل فن دقيق في السجون، له قواعده ودروسه، وبالتالي له أساتذته المتفوقون الذين يأتون بما يشبه المعجزات وقد تودي مثل هذه المعجزات بحياة السجين، وقد تفقده عضوًا من أعضائه، وقد تؤدي الغرض المطلوب منها في دقة عجيبة.

وهذا الفن معترف به في مجتمع النزلاء، لذلك فهو لا يثير بين غالبيتهم اشمئزازًا، ولا يستدعي نفورًا أو تأففًا إلا إذا كانت المبالغة فيه زائدة، والتطرف فوق الحد..

فلماذا يلجأ النزلاء إلى هذه الأسلوب المذري في سجنهم؟

هناك أسباب مختلفة لهذه الظاهرة الغريبة، منها:

الفرار من المسئولية والعمل والجنة الموعودة:

هناك فئة من المسجونين تعشق التبطل والقعود، قد اتسمت حياتها بالكسل والتراخي، فتنفر من أبسط الأعمال، وتتحايل على الفرار منها. وهناك فئة أخرى يضيقون ذرعًا بالأشغال الشاقة حيث قطع الأحجار أو نقلها في الجبل، فلا يستطيعون تحمل ذلك المجهود المضني الذي يرهق أجسادهم، وينهك قواهم إنهاكًا شديدًا، وخاصة إذا كان المسجون ليس من الفلاحين الذين تعودوا على حياة الصبر والعمل الشاق.

وهناك فئة من المسجونين الذين يقومون بالعمل على الأنوال في ورش النسيج ويطلب منهم مقطوعية معينة وليس أمامهم إلا أن ينتجوا ما يطلب منهم، وإلا فالتأديب والجلد في انتظارهم.

هؤلاء وهؤلاء -أعني الذين درجوا على التبطل خاصة اللصوص والذين يهربون من مسئوليات الأعمال الشاقة ومقطوعاتها- يلجأون إلى اصطناع تلك العاهات، التي تجعل لياقتهم الطبية غير كافية لمزاولة مثل تلك الأعمال، فإذا ما

عرضوا على طبيب السجن أعطاهم درجة طبية - أي عملًا أخف من سابقه.

لهذا لا يرعوي الواحد منهم أن يضحي بعضو من أعضائه، أو يشوه جزء من أجزاء جسمه، حتى ينال الجنة الموعودة - الدرجة الطبية- ومثل هؤلاء النفر من المسجونين ينظر إليهم من إخوانهم نظرات الحسد والغيرة على هذا النجاح الذي أحرزوه.

بقيت طائفة أخرى من المسجونين، وأعني بهم أولئك الذين يهرعون إلى بعض الأعمال ذات الكسب المادي، مثال ذلك المسجونون الذين يعاونون «التومرجية» أو السجانين في توزيع الوجبات الغذائية على النزلاء فيستيطعون أثناء ذلك أن يختلسوا جزءًا مما ليس لهم فيه حق ليتناولوه شخصيًا أو يبيعوه لمن يريد أن يشتريه.

روى لي (ع.خ) هو نوبتجي في أحد الأدوار التي تستقبل الإيراد -النزلاء الجدد- وله سلطة ونفوذ واسع، قال لي: إنه قد يكسب في يومٍ واحد ما يقرب من جنيهين، هو يستطيع بتأثيره على سجان الدور أن يختار للنزيل الجديد مكانًا مناسبًا، وعددًا كافيًا من البطاطين، وبرشًا نظيفًا متينًا، والأهم من هذه وتلك يضعه وسط مجموعة من النزلاء الموثوق في رجولتهم وأخلاقهم، وبعض النزلاء الجدد يقبل أن يضحي بكل ما يستطيع حتى يدفع عن نفسه غائلة البرد، وعبث المذنبين وقذارتهم وضوضائهم..

فلا عجب إذن أن يحاول (ع.خ) بشتى الطرق والوسائل – ولو أدى الأمر اصطناع عاهة -كي ينال هذا العمل المربح المريح في السجن.

الاتصال بالخارج:

بعض النزلاء يهمهم جدًا الاتصال بالخارج لأسباب كثيرة، فيعمدون -كما سبق- إلى رفع درجة حرارتهم رفعًا مصطنعًا، أو يبتدعون الجروح والأمراض حتى ينقلوا إلى مستشفى الحميات أو الجراحة فيتحقق لهم ما يريدون .

أعرف بعض النزلاء الذين كانوا يخرجون إلى المستشفيات الخارجية، فإذا ما عادوا تجمع حولهم زملاؤهم يهمسون ويبتسمون ويقبلونهم في رءوسهم ووجوههم وأيديهم..

لا تعجب أيها القارئ فقد عادوا يحملون معهم السموم.. أعني المخدرات من حشيش وأفيون، وكذلك النقود..

وأين يحملونها؟؟

في أنابيب معدنية صدئة، أسطوانية الشكل..

وكيف يدخلون بهذه الأنابيب إلى السجن؟؟

هناك عملية تهريب مشهورة بين النزلاء اسمها «اللبوس»، وهي عبارة عن وضع هذه الأنابيب المعدنية في فتحة الشرج، ودفعها إلى أعلى حتى تختنق تمامًا، وهذا هو السبب في أن إرغام النزيل -فيما مضى- على التبرز كان وسيلة من وسائل التفتيش..

في دورة المياه بالسجن حدث ذات مرة أن سمع السجان الحوار التالي بين اثنين من النزلاء.. قال الأول في تذلل واستسلام:

- «اعمل معروف يا معلم واديني حتة بشلن.. رأسي راح تطير.

فرد الثاني في كبرياء وسيطرة:

- «خليك لبكرة الصبح..»

- «أنا فعرضك يا معلم..»

- «يا أخي النزيف خلص عليّ.. ألبسها وأنزلها.. وألبسها وأنزلها طول النهار.. ليه؟؟ هو أنا حيوان؟؟»

- «عشان خاطري يا معلم»

وبعد حوار طويل أراق فيه الأول ماء وجهه، دخل الثاني دورة المياه، وبعد فترة خرج وفي يده قطعة من الأفيون فاختطفها الأول منه وكأنه عثر على كنوز الدنيا بأسرها، لكن سرعان ما ظهر السجان وأخذهما متلبسين.

إن الخروج إلى المستشفيات وسيلة -في بعض الأحيان- للحصول على الممنوعات، وطريقة عجيبة لا يرى المسجون بأسًا في التضحية من أجلها بأي شيء مهما غلا..

نوع من التهديد ولفت النظر:

وهناك صنف من النزلاء لا تكاد تجد سببًا ظاهريًا لاعتدائه على نفسه، وتمزيقه لجسده، أو إتلافه لصحته، وقد سئل أحدهم:

- «لم تفعل ذلك؟؟»، فأجاب:

- «سيبونا بقى.. كفاية.. إيه الحكاية بتاعتكم؟؟»

إنه لم يجد سببًا معقولًا لعدوانه على نفسه، ومثل هذا المسجون يحاول دائمًا أن يجتذب إليه الأنظار، ويجعل الضباط والنزلاء يلوكون اسمه -ولو على هذا المنوال الوقح- فينال الشهرة والسمعة التي قد تكمل فيه نقصًا أو تشبع له شهوة غامضة، أو رغبة جامحة منحرفة..

وفئة أخرى تريد أن تنتقم من الإدارة، فتوقع على نفسها أضرارًا تنسبها كذبًا إلى المسئولين حتى تحقق معهم النيابة، ويخيل إليهم أنهم بهذه الطريقة يستردون حقًّا، أو ينالون مكانه في السجن.

الاستمتاع بالأهل:

وقليلون أولئك الذين يلجأون إلى فن اصطناع العاهات والتمارض كي يلتقوا في الخارج بأهليهم وذويهم، فينعمون معهم بأوقات طيبة لا تتاح لهم داخل السجن يومًا ما..

أسباب أخرى غير ظاهرية:

وهناك بعض الأسباب الأخرى التي يعزى إليها اصطناع العاهات ذكرها علماء النفس، منها:

1- غريزة الاعتداء على الغير، وعندما لا يستطيع السجين أن يعتدي على غيره يعتدي على نفسه.

2- ربما كان للكبت الجنسي أثر ملحوظ في اصطناع العاهات، لأنه هناك صلة وثيقة بين الغريزة الجنسية وشهوة القسوة كما في «النزعة السادية».

3- عقدة الإخصاء، وهي وثيقة الصلة بعقدة أوديب (انظر كتب علم النفس).

4- الشعور بالذنب فيقتص السجين من نفسه.

5- اضطراب عقلي.

6- توتر نفسي.

7- رواسب بيئية واجتماعية منذ الطفولة.

(ج) السجن للرجالة:

من القيم الفاسدة، والمعتقدات الخاطئة التي تسيطر على أفكار المسجونين وتتغلغل في صميم عقولهم: أن السجن للرجال. مع أن المعروف بداهة أن السجن هو المكان الذي يأوي أولئك المتمردين على نظم المجتمع، والمتنكرين لتقاليده وقوانينه، والعابثين بأمنه وسلامته، وأولئك الذين يهربون من المسئوليات المنوطة بهم، ويدوسون نداء الضمير وصرخاته..

فالمسجونون معتدون أو خارجون على نظام الجماعة، ولذلك رأت المصلحة العامة أن تضعهم في السجن كنوع من أنواع

العقوبات وطريقة من طرق الردع والزجر، حتى لا يعودوا لما نهوا عنه، وحتى لا يتكرر عدوانهم على النظم التي ارتضتها الفطرة السليمة، والتفكير المتزن السليم..

فهل السجن للرجال كما يقولون..؟؟؟

وهل هو باب من أبواب الفخر والمباهاة والاعتزاز؟؟

وهل هو -في كل الأحوال- منزلة يحسد عليها من يرقى إليها؟

تعالى معي لنتمعن سويًا فيما يزعمه النزلاء..

جرى العرف في السجن أنه إذا ما جاء يوم الإفراج عن أحد المذنبين، احتفل به بعض زملائه بطريقة لا تكاد تتغير، ففي ليلة ما قبل الإفراج، وبعد أن ينتهي تمام السجن بساعة أو اثنين، تسمع صوت أحد أصدقاء المفرج عنه، ويأخذ هذا الصوت يعدد أدوار العنبر دورًا، متبوعًا بكلمة مدح، إذ يصيح قائلًا:

العنبر كله يسمع.

مساء الخير على خفر الليل..

واحد[1] يا ورد..

اثنين يا فل..

ثلاثة يا ياسمين..

---

(1) يقصد دور 1.

أربعة يا أجدع ناس معلمين..

نعرفكم بأن المعلم «فلان» -من أعيان باب اللوق خارج بكره من خمس سنين «جدعنه» وعقبال عندكم يا حبايب..

ثم يتلوهذه العبارة تصفيق وضجيج لمدة طويلة.. فالسجن على حد تعبيرهم «جدعنة»، وضرب من الرجولة...

وقد يكون هذا المفرج عنه لصًّا عريقًا، وقد يكون قاتلًا شريرًا لا يوقر إنسانية، ولا يرحم آدمية..

وقد يكون «نصابًا»محترفًا، يحيا على الكذب والادعاء والرياء.. وقد يكون محكومًا عليه في قضية تزوير أو رشوة أو خيانة أو هتك عرض أو تبديد..

وقد يكون عدوًّا لدودًا، وخصمًا عنيدًا يتربص بمجتمعه الدوائر..

وقد يكون هذا أو ذاك ومع ذلك فهو ينضوي تحت لواء «الجدعنة» والرجولة وحق له أن يفخر بذلك، ويشمخ بأنفه، ويرفع هامته في كبرياء وغرور!!!

ومع ذلك فمجتمع السجون يجعل منه بطلًا، ويعطيه صورة مشرفة.

(د) اللواط مباح:

وهذه ظاهرة أخرى من الظواهر الشاذة التي قد ينغمس فيها بعض نزلاء السجون، وعلى الرغم من أنها مأساة قائمة،

وانحراف يثير الاشمئزاز، وينبوعن الذوق، إلا أنها قد تحدث في بعض الأوساط، وكأنها شيء عادي.. إن اتصال الرجل بالرجل جريمة مروعة..

لا لأنه أمر يعافه الطبع السليم، والسليقة البشرية السوية فحسب؛ بل لمجافاته لخلقنا الديني، ووازعنا الخلقي نحن الأمم الشرقية المتدينة.

وكثيرًا ما جر الاعتداء الجنسي في أعقابه أحداثًا رهيبة، وترك آثارًا عميقة الغور، ولقد حدث في العهد الماضي كثير من المؤامرات وجرائم القتل داخل السجون أو الليمانات، بسبب الدفاع عن عرض مثلوم، أو الانتقام لسمعة شائنة، حدث ذلك في ليمان طره، وحدث أيضًا في أبي زعبل، والأغرب من ذلك أن بعض هذه الكوارث والمشاحنات قد تطرأ بسبب المنافسة الشاذة من أجل الحصول على تلك اللذة المحرمة.

كان هذا الأمر مزعجًا..

ولم يكن أحد يستطيع الخوض فيه..

وبعد عام 1952 صدرت مجلة السجون لأول مرة، وزحفت إلى صفحاتها الأقلام الصادقة لتناقش هذه القضية علانية، ولم يقف الأمر عند الباحثين والمسئولين، بل شاركهم في البحث والمناقشة بعض النزلاء القادرين على الكتابة أيضًا..

الحرمان الجنسي:

دلت الإحصائيات الرسمية على أن غالبية نزلاء السجون المصرية من الشباب، وذوي الأعمار التي لا يصاب فيها النشاط الجنسي بالخمول أو الضعف.. إن مثل تلك السن تفيض بالطاقة والثورة والحمو، والهرمونات الجنسية Sexual Hormones تقوم بعملها كالمعتاد، والغدد المختلفة المخصصة لذلك لا تكف عن نشاطها الطبيعي Endocrine and other glands، فلا مناص من أن تتحرك هذه الغريزة -غريزة الجنس- بعنف، ويساعد على عنفها تلك العزلة في السجن، وما يلحق بها من أفكار وأحلام وأوهام (1).

ولا شك أن الوقوف أمام طوفان هذه الغريزة أمر صعب التحقيق، لأن الكبت الجنسي -كما وضح فرويد العالم النفساني المعروف- له آثاره الخطيرة البعيدة المدى على السلوك والأخلاق والحالة النفسية بوجه عام، كما أنه يكون مدعاة لتكوين العقد النفسية المختلفة..

هذه حقائق علمية ثابتة، بل إن فرويد قد غالى وقرر أن كل تصرفات الإنسان في الحياة إذا بحثت وراءها، ودققت في

---

(1) «... ولهذا كان لاضطراب الحياة الجنسية الحاضرة وعدم إرواء الشهوة الجنسية وكبت ما يصاحبها من انفعالات شأن يذكر في إحداث أعراض القلق الهستيري..» من كتاب علم النفس الجنائي علمًا وعملًا..

بواعثها تبين لك أن الغريزة الجنسية هي التي توجهها وتسيطر عليها سيطرة تامة.

لهذا فإن تجاهل هذه الحقائق: وصرف النظر عنها يجعلها هنا شبيهًا بالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال، وهي تتوهم أن الصياد لن يراها ما دامت هي لم تره..

والسجون في بلادنا قد أهملت هذه الحقائق، أو بمعنى أصح لم تقدم لها العلاج الناجع واكتفت ببعض الإجراءات البسيطة التي لم تجد شيئًا كما سنرى..

ويقرر الأطباء أن عدم قيام أي عضوبوظيفته المنوطة به، مدعاة لضمور هذا العضووضعفه، لهذا يحدث للنزلاء الذين لا يزاولون نشاطهم الجنسي لمدة طويلة ما يسمى بـ Testicular Atrophy (ضمور الخصيتين)، ولا شك أن الحكم على السجين بإضعاف نشاطه الجنسي، وتعريضه لشتى الآلام والعقد النفسية أو توجيهه للانحراف والشذوذ الجنسي مسألة جديرة بالاعتبار والنظر والدراسة العميقة..

فالحرمان الجنسي إذن هو أحد الأسباب الدافعة إلى مشكلة اللواط، تلك المشكلة العويصة الحرجة في سجوننا المصرية وغيرها.

ولقد حاولت بعض البلدان الأوربية علاج هذه المشكلة الجنسية بطريقة تتفق مع تقاليدها وبيئتها ومفاهيمها الخاصة.

2- ضيق ذات اليد:

ومن الأمور التي تلفت نظر الباحث وهو يقوم ببحث مشكلة اللواط في السجون، أن هناك سببًا خطيرًا يدفع بعض النزلاء إلى الإقبال على هذا العمل المحرم، وأعنى بذلك الفقر، وضيق ذات اليد: فهناك بعض الفتيان الذين يأتون إلى السجن، وإذا بحثت عن أماناتهم المحفوظة لحسابهم داخل السجن لم تجد فيها مليمًا واحدًا وهم يريدون أن ينفقوا.. أن يشتروا شيئًا من الطعام والملبس.. أن يدخنوا سيجارًا، وخاصة إذا كانوا من مدمني التدخين، وحينما تلح عليهم الحاجة، وتلوح أمامهم صور الإغراء المختلفة.. قد يسلمون في شرفهم، ويخضعون لتأثير غيرهم من المجرمين، وقد تعجب عندما تسمع أن أحد هؤلاء الفتيان قد يبيع نفسه لمفترسه من أجل نصف سيجارة.. وآخر قد يستسلم كي يحصل على «فانلة» ليتقي بها ألم البرد.. و.. إلخ.

هذا هو أثر ضيق ذات اليد إزاء هذه المشكلة، وهناك سبب قريب من هذا السبب الذي ذكرناه آنفًا، وأعني به أن بعض النزلاء الذين يهوون التعطل والراحة، ويفرون من الأعمال المضنية مثل قطع الحجر في الجبل، لا يلجأون إلى اختلاق العاهات والأمراض حتى يتخلصوا من هذا العبء الثقيل، ولم يلجأون إلى تشويه أنفسهم، وتعريضها للخطر إذا كان هناك من يتعهد لهم بإنجاز أعمالهم أو استئجار من يقوم بإنجازها من

النزلاء لهم؟؟ والثمن في هذه الحالة أيضًا معروف.. فقد كان بعض نزلاء ليمان أبى زعبل وطره يقضون وطرهم، ويحققون مطامعهم الجنسية عن هذا الطريق العجيب، وكان ضحاياهم لا يستنكفون من ذلك، بل يمشون بين النزلاء في بجاحة وعدم اكتراث، وقد ارتدوا ملابس السجن النظيفة «المقيّفة» على حد تعبيرهم..

3- امتلاء السجون وضيقها:

إن السجون المصرية حين إنشائها كانت قد خصصت لعدد معين من النزلاء وروعي في ذلك بعض النواحي الصحية والاجتماعية المختلفة، ولكن زيادة عدد المجرمين المطردة طبقًا لازدياد عدد السكان وما إلى ذلك قد تسبب في استيعاب السجون لعدد أكبر كثيرًا مما كان مقررًا لها فلا تعجب إذا رأيت أن الحجرة الكبيرة، التي لم تكن تتسع لأكثر من عشرة مسجونين قد ضمت حوالي اثنين وعشرين مسجونًا، وإذا نظرت إليهم في نومهم وجدتهم متلاصقين لا يكاد يفصلهم شيء، ولك أن تتصور مدى تأثير هذا الوضع من الناحية الصحية والخلقية..

وهنا يجب أن نتذكر ما أوصت به السنن الإسلامية من أن الفصل بين الشباب في المضاجع أمر واجب، ولم يفت هذه الشريعة السمحاء ما يحدث غالبًا إذا ما اقتربت النار من المواد القابلة للاشتعال..

وقد يقول قائل: إن نظام الأسرة قد كفل لكل نزيل الانفصال التام في نومه، ونحب أن نؤكد أن مثل هذا النظام لم يطبق حتى الآن إلا في سجن القاهرة وسجن آخر، ومع هذا فالازدحام مازال موجودًا، وشراء الأجساد البشرية هوهو..

وحيث يوجد الازدحام، توجد المشاكل المعقدة، والضيق النفسي، والعدوى الخلقية، وتفشي أوبئة الجريمة والانحراف، ففي مثل هذه البيئة المظلمة العفنة تنمو بذور الرذيلة، وتترعرع، وتأتي بأسوأ الثمار..

لقد حكمنا على المسجون بالسجن والعزل عن المجتمع حتى يرتدع ويزدجر، وتصح أفهامه ونظراته للحياة، ولم نلق به وراء الأسوار كي نضيف إليه شذوذًا فوق شذوذ، وأمراضًا إلى أمراض، لأن هذا سيكون جريمة في حق هذا المريض..

4- الجهل والاستخفاف:

قلت للمسجون ع.أ المجنون

- «أصحيح أن لك رفيقًا؟؟

فقال:

- «السجن كله بلاوي»

قلت له:

- «أتعرف عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية»؟

فقال: «طبعًا».



قلت: «ما هي؟».

قال: «اللواط حرام».

قلت: «أنا أعلم أنه حرام، وحرمته ليست هي العقاب».

فقال: «إذن الواحد يدخل النار».

قلت: «أقصد العقوبة الدنيوية.. هل تعرفها؟؟».

فسكت ولم يجب..

فقلت: له: «أتعلم أن حد اللواط في الشريعة الإسلامية هوالقتل».

فقال: يا خبر أسود.. القتل حتة واحدة؟؟

ومع ذلك فقد ضحك «ع» المجنون وقال: «ربك غفور رحيم..

أمال بس نعمل إيه..؟؟».

***

إن هذا الحوار الهام الذي دار بينه وبيني ليكشف لنا عن مدى ما يملأ ذهنه من جهل مطبق، وأوهام كثيرة، كما يظهر لنا استخفافه بجريمته وعدم اكتراثه لها، لأن حكم العادة وطول الممارسة قد أعطاها صورة خاصة، صورة العادة، لدرجة أن بعضهم يرتكب هذا الشذوذ الغريب علانية، أو وسط مجموعة قد تصل إلى خمسة عشر نزيلًا، دون خجل أو تأنيب ضمير.

ذات مساء سمع صوت أحد الفتيان يقول:

- «الحقني يا شاويش.. يا غفر الليل.. يا سعادة البيه المأمور».

وأخذ يصرخ ويستغيث، بينما من معه في الزنزانة أخذوا يقهقون ويضحكون ويتبادلون النكات والتعليقات الخارجة والتي تنبوعن الذوق والخلق، وأخيرًا وضح الأمر.. إن هذا الشاب إيراده جديد، وقد أوقعه سوء حظه -بعد أن أمضى أيامه الأولى- وسط مجموعة لا تعترف إلا بقيمها الخاطئة الشائنة، وتأتي المنكر وهي في بساطة وهدوء مثيرين، دون أن تتأثر بصياح أو استغاثة.

إنهم يفرضون على النزيل الجديد ضريبة سخيفة، ومن نوع عجيب..

5- التهديد والتخويف:

رأيت المسجون «ح..» ذات مرة، وهو يقبض على عنق أحد الفتيان المسجونين في غلظة، ويكيل له الصفعات واللكمات والركلات في عنف وقسوة وهويقول:

- «بقى رايح تقول للشاويش يا ابن الـ..؟؟».

- «في عرضك.. مش هعملها تاني.. خلاص..».

- «لا بد من قطع رقبتك..».

واستطاع بعض النزلاء أخيرًا أن يستخلصوه من يده بعد توسلات ورجاءات، ولقد تبين لي أخيرًا أن هذا الفتى ضحية من الضحايا الكثيرة التي يجني عليها السجن ذلك المجتمع المريض.. فلقد جاء هذا الفتى إلى السجن لأول مرة لقضاء شهرين حكم عليه بهما، فتقرر تعيينه «نوبتجي» لمسح الأرض وتنظيف دورة المياه بين هؤلاء المجرمين، ولست أدري كيف خولفت لوائح السجن في التسكين، فسمح له بالسكن مع هؤلاء رغم فارق السن.. ولم تفت هذه المخالفة القائمقام ياسين الرفاعي في تقريره الذي كتبه عام 1955- وياسين الرفاعي من كبار الدارسين للجريمة والعقاب وما يتصل بهما- لقد قال[1]: «فالسجون المصرية ليس فيها أي تنويع أو تخصص، فكل سجن يجمع أنوعًا متناقضة من المسجونين مجرمين عاديين ومجرمين خطرين، شبانًا وبالغين، قابلين للإصلاح وغير قابلين للإصلاح، مرتكبي الجريمة للمرة الأولى وذوي السوابق ذوي الأحكام الطويلة، وذوي الأحكام القصيرة، محكومًا عليهم وتحت التحقيق، معتادي الهروب ومن لا يفكرون فيه، أذكياء وبلهاء، متعلمين وأميين، ذوي الاضطرابات النفسية والعقلية، وذوي النفوس والعقول السليمة.. ذوو الأمراض العضوية

(1) ص2 من التقرير الخاص ببعثة السجون المصرية لأمريكا وويلز.

والعاهات والأصحاء، والمدمنين على المخدرات والمسكرات.. الخ».

نعود لذلك الفتى.. لقد خضع لتهديد «ح..»، ولم يستطع أن يتحمل ضرباته وإنذاره بالموت إذا هو لم يستجب لنزواته.. وفعلًا لم يخرج هذا الفتى من السجن إلا مسلوب الشرف، ناقص الرجولة، من جراء «ح» وغلظته، وملامح وجهه التي تزرع الخوف في قلب من يراه..

6- ضعف الرقابة:

ولا شك أن السجن على صورته الراهنة، وتضاعف عدد نزلائه رغم ضيق المكان، وبقاء المسجونين مدة طويلة قد تربوعلى 15 ساعة في اليوم أغلبها أثناء الليل داخل الزنزانة، كل ذلك يجعل الرقابة الدقيقة على تصرفات مسجونين وفعالهم غير ممكنة عمليًا..

وهؤلاء النزلاء قوم غير طبيعيين في أغلب الأحيان، ويحتاجون إلى مزيد من المراقبة والدقة، فإذا ما انعدم كل ذلك أو كان بدرجة أقل، تركت الفرصة لهم كي يعبثوا ويتمادوا في عبثهم وخسرانهم، لكن -والحق يقال- يبدو أن الرقابة وحدها لو تحققت لن تجدي كثيرًا في حل هذا الإشكال، فلا ينقص أمثال هؤلاء النزلاء الحيلة والتدبير كي يصلوا إلى ما يريدون، ولا بد أن يوجد بجانب الرقابة أشياء أخرى سوف نتحدث عنها فيما بعد، ونعني بها إيجاد الوازع الشخصي وإيقاظ الضمائر من

غفلتها وجعلها رقيبًا آخر أهم وأجدى من رقابة المشرفين على السجن.. وقد يقول قائل إن الرقابة غير ممكنة عمليًا، وخاصة على الصورة التي نراها ونؤمن بها، لكن يجب أن يعلم الجميع أن الغرض من السجن ليس هو العقاب، وترك المسجون فريسة للانحلال الخلقي، والانهيار المعنوي وإلا لما كان هناك داع للاهتمام بصحته وأخلاقه، وذلك بإيجاد أطباء ووعاظ من أجله.. فالسجن كعقاب يهدف من ورائه إلى الزجر وإلى الإصلاح أيضًا، فإذا ما اقتصر على العقاب فقط، ولم يحدث للمسجون أدنى إصلاح أو تقدم، فالعقاب فاشل فاشل، والمجتمع لن يجني من وراء ذلك العقاب العديم الجدوى أية فائدة..

7- التشرد:

إن حياة التشرد، وجمع أعقاب لفائف التبغ، واتخاذ الأرصفة والخرائب مسكنًا ومأوى، والعيش على الخطف والنشل، كل ذلك أوجد طائفة من الغلمان يعيشون عيشة الضعة والهوان، عيشة لا تعرف غير الخلق الشاذ، والقيم المعوجة، والمعايير المختلفة المضطربة، وهؤلاء المشردون إذا ما دخلوا السجن - ولا بد أن يدخلوه يومًا ما- كانت عندهم «الكفاءة والاستعداد» اللازمين لكي ينغمسوا في حياة الإثم والشذوذ الجنسي، فقد جربوها في الخارج حيث الخرائب والأماكن المهجورة وهم أطفال، ثم بعد ذلك وهم غلمان يافعون.

ولا شك أن العادات التي تكتسب في الصغر ترسخ في الذهن وتتمكن من النفس أشد التمكن، لأنها فترة تسود فيها الصحيفة البيضاء صحيفة الطفولة البريئة الساذجة الطاهرة.

وستكون حياتهم في السجن امتدادًا واستطرادًا لحياتهم في خارجه من قبل، وسيزدادون بمرور الأيام إثمًا وشذوذًا، وما زلت أذكر هؤلاء الغلمان الذين هم في عمر الزهور، وهم يتشبثون بقضبان النوافذ الحديدية، وينظرون إلى المارة في فناء السجن ويقولون في ضراعة واستماتة:

- «عود كبريت والنبي يا بيه».

- «عقب سيجارة ربنا يخليك».

- «إديني نفس دخان ينوبك ثواب».

قد يعطيهم أحد المارة ما يشاءون، لكن غيره قطعًا سوف يستغل هؤلاء الفتية أبشع استغلال، ولن يعطيهم عود الكبريت أو نفس الدخان أو لقمة العيش إذا ما جاءوا، إلا إذا دفعوا الثمن غاليًا من كرامتهم ورجولتهم ومستقبلهم الغامض الحالك..

فحياة التشرد سبب من الأسباب التي تدفع إلى الجرائم الجنسية وغيرها..

8- الشذوذ الفسيولوجي:

وهناك نوع من الشذوذ الجنسي، ينتج عن اضطراب في الوظائف العضوية Physiolagical Functions، وارتباك في عمل الغدد المختصة بإفراز الهرمونات الجنسية، أو زيادة الحساسية في مكان معين، أو الإصابة بنوع معين من الطفيليات (دودة الأكزيورس، وهو طفيلي في حجم دودة المش تقريبًا، وصعب العلاج، وذلك لسرعة العدوى وتشعبها ودقتها [1])، وهذه الطفيليات تحدث نوعًا من التهيج في منطقة الشرج، وقد يكون هذا التهيج نواة للشذوذ الجنسي..

هذا النوع من الشذوذ الجنسي لا يقتصر على مجتمع السجون وحده، بل يمتد إلى ما عداه، لأنه كما ترى بعيد كل البعد عن أثر السجون وما تتركه من تحول في الخلق والسلوك.. لكن يجب ألا تنسى أن مرضًا مثل الأكزيورس من السهل انتشار عدواه بين النزلاء، وهذه نقطة جديرة بالاعتبار، وخاصة لأولئك المشرفين على نظام الصحة الوقائية داخل السجون.

ومثل هاتيك الأمراض -التي تتعلق بالغدد والوظائف الفسيولوجية- معترف بها علميًا، ولها مباحثها المفصلة، ونظم العلاج الخاصة بها.

---

(1) مذكرات الباراسيتولوجي للدكتور خليل.

9- عدم إيجاد حل:

ومن المعروف أنه إذا عرضت لنا مشكلة من المشاكل، ووقفنا إزاءها حائرين، وجبنا عن اتخاذ العلاج الحاسم السريع. فإن مثل هذه المشكلة ولا شك ستزداد استعصاءً. وستتشعب وتصبح كالسرطان -ذلك الورم الخبيث الذي ينطلق بجنون بين خلايا الجسم، ويدمر هنا، ويحطم هناك، ولا يترك الجسم إلا شلوًا ممزقًا، إلى الموت أقرب منه إلى الحياة- هذا ما حدث بالنسبة للمشكلة الجنسية في السجون عندنا..

لقد وقفنا إزاءها حائرين لا نعرف أين نتجه، فبعضهم أوصى بالرياضة البدنية، وبعضهم أوصى بالقراءة والاطلاع[1] إلى جانب الأعمال المختلفة التي يزاولها المسجون، وبعضهم أوصى بتقوية الناحية الدينية، والوازع الخلقي في نفوس النزلاء..

وهكذا لم نجد سياسة ثابتة قوية الدعائم، نستطيع أن نعتبرها حلًا موفقًا لهذه الكارثة..

إن عدم وجود حل موفق لهذه المشكلة، صار سببًا من أسباب تفاقمها وتطورها في خط غير مرض..

وسنتناول فيما بعد الآراء الخاصة بهذه المشكلة النقد والتحليل.

***

(1) يقصد من وراء ذلك التسامي أو التصعيد الغريزي Sublimation.



هذا ما استطعنا تسجيله في هذه العجالة الخاطفة بشأن المشكلة الجنسية -مشكلة اللواط- في السجون، تلك التي ينظر إليها المجرمون نظرتهم لشيء طبيعي لا غرابة فيه ولا خروج على المألوف..

ومن الإنصاف أن أسجل أن في مجتمع السجون رغم هذا فئة من الناس تحافظ على كرامتها، وتستبشع مثل هذه الأفعال، إن أصحاب هذه الفئة يقضون فترة السجن المحكوم عليهم بها في طاعة وندم وتبتل إلى الله، يستجدونه الغفران، ويسفحون بين يديه عبرات الندم والتوبة، ومنهم من ينشئ طرقًا صوفية داخل السجن، ويجمع حوله أتباعًا ومريدين.. مثل هذا الصنف من النزلاء لا نستطيع أن نهضمه حقه، لأن الواقع الحي والأمانة العلمية تقتضينا ذلك، حتى نكون على بينة من حقيقة الأمر، فيلاقيه الدارسون بالعلاج والحل الموفق.

(و) «الخبص» رذيلة:

ومن القيم التي يؤمن بها النزلاء، ويحلونها منزلة عالية في معتقداتهم هي أن «الخبص» رذيلة ممقوتة تستوجب الاحتقار..

«والخبص» اصطلاح يشير به النزلاء إلى أولئك النفر منهم الذين ينقلون أسرار إخوانهم إلى الإدارة، ويكشفون عن نواياهم وتدبيراتهم في السجن.. وما أكثر هذه التدبيرات.

وقد درج بعض الإداريين على بث العيون، واصطناع الجواسيس بين النزلاء، حتى يوافوهم أولًا بأول بأخبار النزلاء،

كي يكونوا على بينة من أمرهم.. ولا يعدم الإداريون أن يجدوا من يقوم لهم بمثل هذا الدور الهام بين النزلاء.

وأغلب الضبطيات المهمة التي تحدث في السجن تتم عن هذا الطريق، ففي كل سجن تجار للممنوعات، وتجار للمخدرات خاصة، وهؤلاء يصطنعون كل وسائل الحيطة والحذر حتى لا تنكشف أمورهم، وحتى لا يهتك الستر عن تجارتهم الخطيرة، ولهذا فهم يدارون هذا وذلك، ويرشون فلان وعلان ممن يخشى بأسهم من النزلاء المقربين لدى الإدارة.. ومع ذلك فلا يعدم الأمر أن يتطوع بعض «الخباصين» -كما يسمونهم- ويهمس في أذن الضابط المسئول، مفشيًا أسرار زميله التاجر، حتى يكتسب ثقته، ويحظى بعطفه.. وقد يكون الدافع إلى ذلك مجرد الحقد والغيرة، لأن ذلك التاجر قد يكسب مكاسب خيالية، وربما يكون الدافع هو الانتقام الشخصي لسوء تفاهم أو شجار حدث بين الطرفين، وقد يكون مجرد شهوة في إفشاء أسرار النزلاء دون أن يجني فائدة تذكر من وراء ذلك، ومثل هذا النوع الأخير من النزلاء يوصف بينهم بالحطة والنذالة وعدم الرجولة.. وهناك اعتقاد بين النزلاء بأن رذيلة «الخبص» شبه منعدمة أو نادرة الحدوث في ليمان طره، ويعزون ذلك إلى أن صنف النزلاء هناك من ذوي الأحكام الكبيرة، وأن الجرائم التي حوكموا من أجلها ليس فيها ما يشين -كما يزعمون- لأنها جرائم ثأر، أو يتعلق أغلبها بالشرف عن السمعة وكرامة الأسرة، ولهذا يعتقدون أن

السجون المركزية والسجون التي فيها معتادوالإجرام حيث يوجد النشالون ولصوص السطو، وهتك العرض والرشوة والتزوير وما إلى ذلك.. يعتقدون أن مثل هذه السجون مملوءة «بالخباصين».

ويعتبر أيضًا من زمرة الخباصين كل من يؤدي شهادة -ولوصادقة- يكون نتيجتها توقيع العقوبة أو الإضرار بنزيل من النزلاء.

ولا شك أن تلك النظرة التي ينظرها النزلاء إلى فريق الخباصين ناشئة عن العقيدة التي ألمحنا عنها من قبل حينما قلنا إن الإداريين والنزلاء يؤلفان جبهتين منفصلتين، أو معسكرين متضادين، فلا وجود إذن لشعور الألفة والثقة والتواد بين الاثنين، لهذا فإن كل من يتطوع بالدس للنزلاء عند رؤسائهم، أو يكشف عن بعض خططهم وألاعيبهم يعتبر مارقًا خارجًا على مبادئ الرجولة والشهامة ذات الطابع الخاص الذي يرضيهم، وكثيرًا ما تسبب «الخبص» في الصدام بين النزلاء أنفسهم، وكثيرًا ما أدى إلى جرائم مروعة راح ضحيتها أفراد مساكين.

ويلاحظ أن الخباصين -كما تبين لي فعلًا- لا يتحرون الدقة فيما ينقلون من أخبار، وما يفشون من أسرار، فبعضهم يعمد إلى المبالغة والتهويل والكذب الصريح، فتسوء العلاقات بين النزلاء والإدارة لدرجة قد تكون خطيرة، وقد تؤدي إلى إلصاق بعض التهم بقوم أبرياء فيضطهدون أو يجلدون بلا جريرة..

ودور الخباصين لا يقف عند مهمة نقل أسرار النزلاء للإدارة، بل يتعدى ذلك إلى الدس بين النزلاء أنفسهم، فيعمد ذوو الميول الشاذة، والنفوس الشريرة إلى الوقيعة بين فئات النزلاء، فينقسم مجموعهم إلى طوائف متناحرة، وتشب بينهم الأحقاد والعداوات التي تجد تربة خصبة، وجوًّا مناسبًا في هذه النفوس العليلة السريعة التأثر..

والعجيب أن مثل هؤلاء الخباصين لا يخفون على النزلاء فمعظمهم معروف أمره، مكشوفة تحركاته لزملائه، ونظرات السخرية والازدراء والتقريع تلاحقهم أينما ساروا وحيثما حلوا، وهذا الاحتقار أو الازدراء لا يزيدهم إلا استمساكًا بخطتهم وإمعانًا في «خبصهم» ذلك الذي يصبح عادة محببة لديهم..

روى لي أحد النزلاء أن سجينًا ضاق ذرعًا بقسوة ضابط الجبل وإرهاقه لهم، ولهذا صرح بين زملائه أنه سوف يحطم جمجمة هذا الضابط بأية طريقة في الوقت المناسب حتى يستريح منه ومن طغيانه، وفي اليوم التالي كان ذلك الضابط يرمق السجين بنظرات نارية حانقة، ولم ينته الأسبوع إلا وكان هذا النزيل قد لصقت به تهمة، وكتب له محضر، وجلد على «العروسة» -آله خشبية يربط فيها المسجون عند الجلد- جلدًا مبرحًا..

ويؤكد لي راوي هذه القصة أن السجين ربما تهدد الضابط وتوعده في خفية عنه وبين زملائه ليرضي غرورًا في نفسه أو

تفريجًا عن همومه وآلامه، ولم يكن التهديد إلا مجرد كلام يقال.. لكن الأمر تطور إلى مثل تلك الصورة.. والأغرب من ذلك أن أحد شباب الصعيد حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات في ليمان أبي زعبل، وقد حاول أحد النزلاء القدامى الاعتداء عليه اعتداء جنسيًا، ولكنه رفض وعرف كثير من النزلاء هذه القصة. وتشاء الظروف أن يأتي خال هذا الشاب إلى ليمان أبي زعبل محكومًا عليه في الأيام الأخيرة لسجن ابن أخته، فسارع إليه ذلك النزيل القديم -الذي حاول العدوان على الشاب من قبل- وأوهم خال الفتى أن ابن أخته سيئ السير والسلوك، وأنه ارتكب كثيرًا من الفضائح التي لا يجهلها أحد في الليمان.. فثار الخال وهاج وماج..

وحينما خرج الفتى في الإفراج، لم يرتح بال خاله إلا بعد أن أوصى أحد أفراد العائلة بقتل ابن أخته ذلك الشاب العاق الفاجر.. وفعلًا تمت الجريمة.. وعندما بلغ أنباؤها أسماع من في ليمان أبي زعبل أدركوا في الحال أن الفتى القتيل مظلوم، وأن الذنب يقع على ذلك «الخباص» الكاذب، الذي أراد أن ينجي نفسه، ويلصق التهمة بالفتى البريء الذي راح ظلمًا وعدوانًا..

وفعلًا أبلغوا خال الفتى الحقيقة، وأفهموه المؤامرة الخبيثة، ولم ينفض مجلسهم إلا بعد أن قرروا قتل ذلك «الخباص» الذي اختلق القصة اختلاقًا، وقلب الحقائق قلبًا، ولم تمر غير أيام قلائل

إلا وكان ذلك النزيل الخباص في عداد الموتى، وحكم في هذه القضية على الخال حكمًا إضافيًا من داخل الليمان..

وحوادث الخباصين في السجون كثيرة يكاد يخطئها الحصر، ولقد ضربنا لك بعضها على سبيل المثال.

(هـ) الثار شهامة عربية:

وهذه القاعدة -أو الشعار المقدس لديهم- تبدو واضحة جلية في سجون الصعيد المركزية التي قمت بزيارتها، وفي الليمانات بصورة آكد وأوضح، ولم تستطع عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة وغير المؤبدة أن تغير من هذه العقيدة.. وبالرغم من الدماء التي تراق والأموال التي تنفق على القضايا، والبيوت التي ينعق فيها البوم بعد أن يذهب ذووها إلى السنجن أو القبر، بالرغم من كل هذا فإن تلك العقيدة ما زالت تسيطر على النفوس، وتمسك بتلابيبها..

لقد روى لي النزيل (ع.م) كيف أن شجارًا عنيفًا حدث بين أسرته وأسرة أخرى في أحد مراكز مديرية أسيوط من أجل خمسة وعشرين قرشًا ثمنًا لمساحة صغيرة من البرسيم، وراح ضحية هذا الصراع سبعة أفراد قتلى، وأخبرني (ع. م) أن أعمامه الثلاثة في الليمان، وعمه الرابع معه في سجن أسيوط، وروى لي أن أعمامه في الليمان أرسلوا إليه خطابًا سريًا وقالوا له فيه:

«لابد من قتل فلان» قبل العيد.. وقد كان..

إنهم داخل السجون يقاسون الآلام والأهوال والحرمان، ويقضون أيامهم في قطع الأحجار، ومع ذلك فهم يفكرون في الثأر، ويرسمون له الخطط، ويقضون لياليهم الكئيبة يحلمون بالانتقام المروع.. وإذا ما سألت أحدهم عن جريمته شمخ بأنفه، وبرم شاربه، وقال في عنجهية وكبرياء وفخر:

«جريمتي قتل».

إن أمثال هؤلاء لا ينظرون إلى جريمة القتل إلا في ضوء التقاليد البالية العفنة، وعلى هدي العرف الجاري الذي خلفه لهم الآباء والأجداد ويا له من ميراث ثقيل مقيت يتلقونه هم في تقديس وإكبار وإعزاز.

ولقد يرى الواحد منهم -إذا ما قُتل قريبه- أن من العار الذي ما بعده عار أن يبلغ رجال الأمن عن تلك الجريمة، وتأنف نفسه أن يتهم إنسانًا ، فيعمد إلى التدبير في الظلام حتى يأخذ بثأره بنفسه، ومثل هذا الإنسان لا يعرف شيئًا اسمه القانون، ولا شيئًا اسمه الدولة التي تحميه وتسهر على راحته.. إن التقاليد قد وضعت حجابًا كثيفًا على عينيه. فعمى عن رؤية الحقيقة.

وماذا تقول في ذلك الجامعي ذي التعليم العالي الذي سارع بالثأر من قاتل أبيه، ولم يستطع الإفلات من ضغط أقربائه، ونظرات أهل بلده التي تسخر منه، والتقاليد التي تمسك بخناقه..؟

لقد قامت معركة في نفس هذا الشاب بين العلم والتقاليد فانتصرت الثانية..

والدارس لموال «الأدهم» الشرقاوي الذي يبدأ بهذه الفقرة:

«منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه»

يجد وراء كل عبارة من عباراته التغني بالثأر وجريمته، والفخر بها، والتضحية بالمستقبل والحياة في سبيل ذلك، ومعاداة الحكومة من أجل الحفاظ على هذا التقليد..

وقد تجد في أولئك القاتلين شيئًا غير قليل من الدماثة والرجولة فعلًا، وخاصة عندما تتعامل معهم، فيتبين لك نقاء معدنهم، وصفاء فطرتهم، والنزعة الإنسانية التي تكمن في أعماق روحهم رغم افتخارهم بأنهم قتلة وسفاكون، لاعتقادهم أن الثأر واجب مفروض، لا يستطيعون الحياة إلا إذا تخففوا من عبئه، لهذا فهم يعتبرون ذلك الواجب أثقل من الأغلال والقيود التي تحيط بسيقانهم، وأقسى من ظلمات السجون ورهبتها.. والذي يستمع للفقرات التالية من موال الأدهم الشرقاوي التي يوجهها لغريمه قبل مقتله يؤمن معنا بما تراه.. يقول الأدهم:

«إن كنت عطشان من كوز الزلال أسقيك»

«وإن كنت جوعان من لحم كتافي أغديك»

«وإن كنت عريان من حرير سندسي أكسيك»



إن النخوة والرجولة والكرم لا تفارقه حتى في الساعات الحرجة التي يغلي رأسه فيها بالحقد، وتفيض نفسه بالنقمة، ويملأ قلبه بالرغبة الجامحة.. رغبة الانتقام والأخذ بالثأر..

ومع ذلك فهناك فئة أخرى يعميها الانتقام عن مراعاة مثل هذه الأخلاق الكريمة، فتملك عليها شهوة الثأر كل سبيل، وتشوه فيها كل معنى فاضل كريم..

لكن هل كل مرتكب لجريمة القتل يفتخر بجريمته ويتغنى بها؟؟.

إن هذا لا يحدث دائمًا، وإليك الدليل..

كان النزيل «م.ع» يتغنى بملحمة مشهورة يعدد فيها حوادث «الخط» المجرم المعروف، ووصف فيها المؤامرة التي دبرت للإيقاع به، وكان ذلك السجين -وهو حسن الصوت- يرفع عقيرته في الليل داخل الزنزانة وخاصة إذا ما وصل إلى المقاطع التي تشير إلى بطولة «الخط» وإرغامه الأغنياء وذوي الجاه والألقاب على دفع إتاوات يحددها هو..

وفي إحدى الليالي بينما كان هذا «السجين» يتغنى بذلك الموال، ويرفع عقيرته كالمعتاد صاح فيه النزيل المجاور له.. قائلًا.

- يا أخي بطّل بقى.. بلا «خط» بلا زفت.. كان ابن.. حرامي وخطّاف..».

ودارت بينهما مشادة كلامية حادة، وعندما انتهت سئل ذلك السجين الثائر عن تهمته فقال:

- «ضرب أفضى إلى موت.. خمس سنوات سجن».

- «إذن فأنت نادم على ما اقترفت يداك؟؟».

- طبعًا.. والله ما كنت عاوزه يموت.. لكن نصيبه كده».

- «ألا تشعر بالفخر عندما تقول إنك قاتل..».

- «يا عم صل بناع النبي.. ربنا يسامحنا.. مفيش أحسن من الواحد اللي عايش في حاله، وواخد باله من عياله..».

هذه هي آراؤه بالنسبة لإحساسه إزاء جريمته.

ومع ذلك فقد تعجب من ذلك العالم الأزهري الأسيوطي الموطن، الذي ذكر مندوب «آخر ساعة» [في تحقيقه الصحفي عن الثأر] أنه سأله قائلًا:

- «ماذا تعمل يا سي الشيخ إذا قتل إنسان ما أخاك؟؟».

فرد الشيخ على الفور:

- «أشرب من دمه».

ورغم هذا الاضطراب والتأرجح في الحكم على جريمة القتل عامة والأخذ بالثأر خاصة فإن غالبية المجرمين القاتلين يعتزون بجريمتهم ويعتبرونها ضربًا من البطولة والشهامة والواجب.

(ز) تعاطي المخدرات «فهلوة» ورجولة:

ومن القيم المختلفة التي يعتنقها بعض النزلاء اعتبارهم أن تعاطي المخدرات -وخاصة الحشيش- ضربًا من الرجولة والفهلوة.. ولعل ذلك راجع إلى الاعتقاد الشائع الخاطئ وهو أن الحشيش يقوي الناحية الجنسية، ولا شك أن القوة الجنسية في نظر الكثيرين هي معيار الرجولة الحقة، والحيوية الفائقة، كما يعتقد البعض أيضًا أن تعاطي الحشيش يفتح الشهية، ويقوي البنية، فتظهر على الإنسان أعراض السمنة والصحة السليمة..

ويظن المدمنون أن دنيا المخدرات دنيا جميلة مليئة بالأحلام والأوهام والسعادة، ولذلك فدخولهم إلى هذه الدنيا «الجملية» يعطيهم ميزة على غيرهم، لأنهم طرقوا ناحية لم يطرقها سواهم، وجربوا وسيلة لم يستطع الآخرون أن يقتربوا منها..

ويزعمون أيضًا أن الحشيش -مثلًا- مجلبة للسعادة والمرح ومدعاة لخلو البال والهروب من آلام الحياة وأحزانها ومشاكلها، ولا يريد المدمنون أن يعترفوا أنهم بهذا -على فرض صحة ما يشيرون إليه- يعمدون إلى الهروب من الواقع ويفرون من معركة الحياة، وما فيها من مسئوليات ومشاكل..

والمدمنون يدفعون ثمنًا غاليًا ليشتروا به هذه الرجولة المزعومة، هذا الثمن يدفعونه من صحتهم ومن حريتهم، ومن

سعادة أسرهم ومستقبل أبنائهم وأوطانهم.. لكنهم لا يريدون أيضًا أن يعترفوا بذلك.. فهم لا يعلمون أن النشاط الجنسي عند مدمني المخدرات يفقد نهائيًا إذا ما تقدم بهم العمر، ولا تجدي آنذاك العلاجات المختلفة والعقاقير الكثيرة على العكس من أولئك الذين لا يتعاطون المخدرات..

ولو علموا هذه الحقائق لما صدقوها لأن الوهم قد تأصل في عقولهم والدعايات الكاذبة التي يروجها تجار المخدرات قد أفسدت تفكيرهم.

والمدمنون أيضًا لا يعلمون أن تعاطي المورفين والأفيون ومشتقاته تؤدي في النهاية إلى نوع معين من الجنون يطلق عليه الأطباء والباحثون: [Morphino - mania]، لأنهم في نشوة الإدمان، وفي غمار الاستسلام الكامل لهذه السموم، ولا يكادون يجدون الوقت المناسب للحكم السليم على موقفهم الدقيق..

وما أكثر الأقاصيص والأساطير التي تروي عن الملوك والوزراء في الزمن القديم حينما كانت تتعقد المشاكل، ويقعون في الورطات، التي لا يجدون مخرجًا منها إلا إذا لجأوا إلى حشاش ضليع، فيلقي إليهم بما يثلج صدورهم من حلول سليمة.. إن مثل هذه الأساطير كثيرة، ولعلها تزيد على نوادر «جحا» وأبي نواس وندماء هارون الرشيد التي تعددها قصة ألف ليلة وليلة وغيرها..



بل إن مثل هذه الأساطير كثيرًا ما تضع الحشاشين في منزلة يتغلبون بها على فقه الفقهاء، وعلم العلماء حتى لكأن الحشيش مادة سحرية تخلق من الجاهل عبقريًا عالمًا بكل أسرار الحياة ودقائقها، وفيلسوفًا لا تغرب عن ذهنه شاردة ولا واردة.

وما دامت المخدرات لها هذا المفعول الساحر الموهوم بالنسبة للصحة والذهن والجنس والحالة المعنوية، فهي تستحق إذن أن يتفنن المسجونون في الحصول عليها ويلتمسون شتى الطرق والوسائل كي ينالوها، ويضحوا في سبيلها بالكثير..

حدث في عام (1958) أن سجان بوابة سجن القاهرة أثناء تفتيشه «الغذاء الملكي» المرسل لأحد المحجوزين في السجن تحت التحقيق وجد كمية من المخدرات مدسوسة في الأرز.

وضبط أيضًا أحد السجانين في ليمان طره، وهو يحمل كمية من الحشيش لتوصيلها إلى بعض النزلاء..

وكثير من النزلاء العائدين من المحاكم، أو الراجعين إلى السجن بعد إتمام علاجهم في المستشفيات الخارجية، يلجأون إلى طريقة «اللبوس» التي أشرنا إليها آنفًا..

ومن المألوف أن يتقدم أحد النزلاء -الذين لا يرغبون في مغادرة السجن ويتهربون من الإفراج- إلى الضابط بقطعة من المخدرات ويطلب منه استدعاء النيابة للتحقيق حتى «يحظى» بحكم جديد يطيل أيامه في السجن مدة أخرى..



فباسم الرجولة يتلهف بعض النزلاء على تعاطي المخدرات.. وباسم الرجولة أيضًا تروج تجارة السموم المخدرة خلف الأسوار..

وباسم الرجولة يركب النزلاء -ومن يعاونهم- الأخطار الجسيمة كي يحصلوا على هذه البضاعة ويستمتعوا بها..

وباسم الرجولة تنتقل عدوى المخدرات من نزيل إلى نزيل فيأتي إلى السجن بجريمة واحدة، ويخرج منه وهو على استعداد لأن يعود بجريمتين جديدتين إذا لم يفلت عن رقابة القانون..

لهذا لا تعجب إذا سمعت أحد النزلاء بسجن القناطر الخيرية وهو يترنم بأغنية طويلة عن الحشاشين يقولون فيها:

«الحشاشين.. ما لهم»

«دول طيبين.. ما لهم»

«الحظ كله.. في مجالهم».. الخ

ولا تعجب أيضًا إذا قلت لك إن مدمني الخمر أيضًا يلجأون إلى طرق غريبة لإطفاء ظمأهم إليها، فينقعون الخبز في الماء لمدة طويلة، ويجرون عليه بعض العمليات الخاصة التي تؤدي إلى تخمره، وقد يضيفون إليه بعض المواد الأخرى.. وقد يستعملون العسل الأسود أيضًا.. المهم.. أنهم يحصلون على ما يشاءون من مواد مسكرة بطريقة أو بأخرى، والحاجة تفتق الحيلة..

وقد تجد النزيل منهم لا يكترث بملبسه أو مأكله، ولا يهتم بصحته أو مرضه، لكنه يحشد كل إمكانياته وحيله للحصول على ما يريد من «الكيف» الذي يستعبده.

(ح) العصبيات واجب مفروض:

إن السجن -على أي صورة كانت- لا يشعر الإنسان فيه بالطمأنينة التامة، لذلك يحس النزيل أنه غريب.. منعزل.. وأنه في حاجة إلى من يقف بجواره، ويأخذ بيده، ويواسيه إذا ألمت به كارثة، أو حلت به مصيبة، لهذا لم أعجب عندما أخبرني عم (ع.ح) وهو محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة -أنه في إحدى زياراته علم أن أخاه مات، فقال لهم بكل بساطة ودون أن تدمع عيناه: «الله يرحمه».

ثم تحول مجرى الحديث إلى جهة أخرى، وعندما عتبت عليه لعدم التأثر وعدم البكاء من أجل أخيه قال: «إن زملائي في السجن هم في مقام أهلي وزوجتي وأولادي.. إذا مرضت فلن يحنو عليّ أحد غيرهم، وإذا أردت أن أشرب هم الذين سيسقونني».

مثل هذا الشعور الذي عبر عنه ذلك الرجل هو الذي يجعل المسجونين يندفعون دفعًا إلى الارتباط، رغم ما قد يشوب هذا الارتباط من عوج وأخطاء في كثير من الأحيان، وهذا الارتباط يتخذ صورًا متعددة حسب الظروف والملابسات والمكان..

فمثلًا في الليمان. وهو يشمل نزلاء من شتى أنحاء البلاد - وكذلك في إصلاحية الرجال من قبل، كان هذا الارتباط يتخذ صورة العصبية العنيفة، فهنا رابطة أبناء وجه قبلي «الصعادية»، وهناك رابطة أبناء وجه بحري «البحاروة»..

وقد يكون نطاق الارتباط أضيق من ذلك، فيكون أبناء كل مديرية وحدة واحدة لا تنقسم عراها، فهؤلاء «الأسايطة» ثم «السوهاجية» وأولئك «أبناء المنوفية» أو «الشراقوة» أو «أبناء الغربية». وفي السجون «المركزية» قد ينكمش حيز هذا الارتباط فيصير في حدود «المركز» فقط، وقد يكبر قليلًا -كما في سجن أسيوط، الذي يشمل بعض السوهاجيين، لكن الغالبية من «الأسايطة»..

نقول إن كل مسجون يتعصب تعصبًا أعمى للرابطة التي ينتمي إليها، ويطلقون على كل من في رابطتهم «بلديات» أو «أبو البلديات». ولا شك أن حالة الغربة والشعور بالنقص والضعف والإشفاق من المصير المجهول الذي ينطمر في طيات المستقبل، كل ذلك يدفعهم إلى الاستمساك بهذه العصبية -سواء في حدودها الضيقة أو الواسعة- فيهبون لنجدة بعضهم البعض، ويعتبرون التواني أو التراخي عن تقديم المعونة خنوعًا وقصورًا وتخنثًا لا يليق بالرجال. وتظهر هذه الصورة في أقوى وأكمل تعبير في أبناء الصعيد خاصة.. ويستطيع المعمرون في الليمان وفي إصلاحية الرجال القديمة أن يرووا لك عن اشتباك الصعايدة

مع البحاروة في عام كذا من أجل كذا، ويعددون لك الضحايا وألوان البطولات التي ظهرت في تلك المعركة، ثم معركة السوهاجية مع الأسايطة في سجن أسيوط بورشة النسيج وتغلب السوهاجية رغم قلة عددهم لبراعتهم في استعمال «العصا»، فهم خير من يجيد اللعب بها..

ونصرة النزيل لبلدياته غير مشروطة بشرط، فليس من الضروري أن يكون صاحبه ذا حق، وليس من الضروري أن يكون مظلومًا فينصفه، لكنه يعاونه في كلتا الحالتين ظالمًا أو مظلومًا، تمامًا كما كان يفعل العرب في جاهليتهم..

والارتباط في أضيق مجالاته -أعني الصداقات الشخصية الفردية- له هو الآخر عصبيته العنيفة التي لا يكاد يخلو منها سجن واحد..

وهناك عصبية من لون خاص في السجون.. إنها عصبية المبدأ السياسي بالنسبة للمحكوم عليهم في جرائم ضد أمن الدولة، فهؤلاء -إذا ما وجدوا معًا- يعيشون في تكتل متميز لا دخل له «بالبلديات» أو الصداقات الخاصة، بل يعتمد ويرتكز على العقيدة السياسية التي يؤمنون بها..

هذا ويلاحظ أن لائحة السجون لا تبيح أي لون من ألوان التجمع أو الارتباط أو المطالب الجماعية، لأن في ذلك تهديدًا خطيرًا لإدارة السجن ونظامه وأمنه الداخلي، لهذا فالعقوبة على

حركات التمرد الجماعية عقوبة شديدة قاسية، قد حددتها اللائحة ووضعت لها الاعتبارات والقيود الملائمة..

ومع ذلك فتلك الألوان المختلفة من التعصب ما زال لها أثرها القوي، والإداريون لا يتوجسون شرًا من مثل هذه العصبيات ما دامت بريئة ولا تتعرض لنظام السجن وإدارته، وإن كان وجودها -مهما كان- داعيًا للقلق والخوف..

ولقد لوحظ أن السجانين قد تأثروا أيضًا بهذه العصبية، وتصرفوا في كثير من الأحيان على ضوئها، وحابوا بلدياتهم من المسجونين..

ولا شك أن النزلاء خاصة؛ في مسيس الحاجة لمن يوضح لهم حقيقة العلاقات الإنسانية في صورها المثالية الرفيعة، ويوضح لهم الأسس التي يجب أن تقوم عليها صلات الارتباط والتآخي، تلك التي يجب أن تتسامى على رابطة المكان المحدود..

(ط) الداخل مفقود والخارج مولود:

ومن الأمور المتفق عليها أن الداخل إلى السجن مفقود والخارج منه مولود. ولعل هذا الاعتقاد راجع إلى الرهبة والخوف اللذين كانا يملأن النفوس عندما تذكر كلمة السجن، وخاصة أن السجون كانت منذ عشرات السنين بالمقابر أشبه، وكانت مليئة بشتى ألوان القهر والقسوة والحرمان، فإباحة التدخين لم تحدث إلا بعد عام 1952، وكذلك السماح ببعض

المـأكولات والفواكـه لم يـصرح بهـا إلا بعـد إنـشاء المقاصـف «الكنـاتين» في الـسجون منـذ عهـد قريـب. ولقـد كانـت نظـم الـسجون آنـذاك منصبة عـلى الانتقام من النزيـل وتحطيم روحـه وجـسده تحطـيما شـديدًا جـزاء مـا اقترفـت يـداه مـن إثـم ضـد المجتمع، كـما أن الـسجون كانـت شبه مقفلـة لا يعلـم أحـد مـاذا يجري في داخلها من اضطهاد، وما يجد بين نزلاتها من مآسي، ومـذكرات الأسـتاذ «عريـان سـعد» في مجلـة «الـسجون» تـصف الكثير من أهوال تلك الأيام الماضية في السجون المصرية، ولقد أجـاد القـصاص الـروسي «دستوفـسكي» وصـف الـسجون الروسية في كتابه «بيت المـوتى»، وكذلك فعل كثيرون غيره من الكتاب العالميين..

كـل هـذه الملابـسات والحقـائق جعلـت الـسجين شـبيهًا بالمستشفى التي يقـصدها المـريض الميئـوس مـن شـفائه لإجـراء العمليات الجراحية الخطيرة، والمـريض في هـذه الحالـة إذا دخـل المستـشفى فهـوفي حكـم المفقـود، وإذا خـرج منهـا فـسيكون في حكـم المولـود، لأن ذلـك لـن يـأتي إلا بمعجـزة تعيـد إليـه صـحته وحياته.

لهذا إذا ما دخل الإنسان السجن، ووجد نفسه محاطًا بجو من الغربة والخـوف، وقـد تخلى عنه أهلـه وذووه، وودع حريتـه عـلى باب السجن، شعر لأول وهلة بالضياع والفقدان..

وبمرور الزمن يتحول هذا الشعور إلى نوع من الاستسلام وعدم الاكتراث، وقبول ما تأتي به الأقدار في صمت وسكون، ثم يجد أن حياة الفراغ واليأس تدفع إلى الترحيب بالموت، لهذا يحاول السجين أن يجري وراء الأحلام، ويتعلق بأهداب الأمل، الأمل الذي يحيا عليه السجين، فيخيل إليه أن الفرج قريب، وأن الحكومة لا بد وأنها ستطلق سراحه بعد أيام قلائل، ويظل يدأب في البحث عن الشائعات والأخبار، فينتهز كل مناسبة، ويجري وراء كل حادثة أو تغيير سياسي، أو يجيء أي عيد من الأعياد، ويصور له وهمه أن ذلك سيكون مدعاة للإفراج، أو سيكون مناسبة لائقة لإخراجه إلى عالم الحرية، أو بمعنى أصح مولده من جديد.. فإذا لم يتحقق ما يحلم به السجين، فإنه لا ييأس، بل ينتظر مناسبة أخرى قد تحمل في طياتها ما يهفوا إليه من أمل.. وهكذا..

ومع هذا الأمل الواسع العريض فإن المسجون يشعر في قرارة نفسه بالقلق والخوف، ويستبعد خروجه لأهله مرة أخرى، وإن كان يحاول أن يخفي هذه الشعور، ويهرب منه دائمًا..

أعرف أحد الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في جريمة قتل، ولم يكد يمر على دخوله السجن أكثر من عام، ومع ذلك كان يقسم إيمانًا مغلظةً على أنه لا بد سوف يخرج من سجنه في بحر ثمانين يومًا..



وقد لاحظت أثناء دراستي لهذه الظاهرة أن أغاني [1] النزلاء ومواويلهم تتعرض لهذين المعنيين: معنى اليأس والحزن والخوف والبكاء على الخلان والأحباب، ومعنى الأمل في الإفراج، فها هو ذا النزيل «أ.ج» يجلس في زنزانته في المساء، ويتذكر أولئك الذين زاروه، ثم رحلوا إلى أقاصي الصعيد.. إلى ديارهم، وتركوه هو وراء القضبان باكيًا حزينًا، يترنم قائلًا:

سهران أناجي النجوم من خلف قضباني

وأطوف بفكري الحزين حوالين خلاني

الراحلين من هنا لصعيد جواني

لا بد بعد الفراق من جمعنا تاني

ولدينا كثير من الأقاصيص والنماذج الفنية التي تؤيد ما نقول..

(ي) ياما في السجن مظاليم:

يقول أحد الشعراء:

لا يدخل السجن إنسان فتسأله

ما بال سجنك إلا قال مظلوم

وهذه حقيقة عجيبة، واعتقاد راسخ ومتغلغل في أعماق النزلاء، فكل صاحب جريمة -مهما كانت- يعتبر نفسه مظلومًا،

(1) انظر الفصل الخامس بأدب النزلاء وفنونهم.

ولا يقرك أبدًا على أن ما يناله من سجن هو عقاب عادل، وجزاء طبيعي لما اقترفت يداه، وهو في إصراره بأنه مظلوم يأتي لك بالحجج الغريبة، والأدلة التي لا جدوى من ورائها،ولا طائل تحتها..

فإذا سألت القاتل: «لم قتلت؟؟»

لأجابك على الفور: «أنا أخذت بثأري.. هذا حقي.. أنا مظلوم».

وإذا سألت السارق: «لَم سرقت؟؟».

لأجاب بسرعة: «أمال آكل منين..؟؟ هو فيه شغل وأنا ما اشتغلتش؟» مع أنك لو أخذت تحاوره وتقول له: «هل إذا وجدت عملًا، أفتعود إلى السرقة؟؟» لأجابِك بصراحة: «أنا لا أستطيع أن أترك السرقة بعد ذلك.. إنني أقف في الترام أو الأتوبيس وأجد أصابعي تتحرك تلقائيًا، وتعبث في جيوب الناس دون إرادة مني...».

وإذا سألت المرتشي: «لم قبلت الرشوة؟؟» لقال:

- «لم يكن هناك رشوة. وإنما هي مؤامرة دبرها بعض الحاقدين ضدي فأوقعوني في حبائلها ظلمًا وعدوانًا».

وقد تجد غيره فيجيبك في صفاقة وتبجح قائلًا: «وماله لما آخد رشوة.. كل الشغل ماشي كده.. الموظفين كلهم حرامية..».

وإذا سألت هاتك العرض: «لم فعلت ذلك؟؟».

قال: «أوه.. بيوت الدعارة في كل مكان.. ثم إن الملعونة هي التي جرتني إلى ما حدث برغبتها، وبعد ذلك تجنت عليّ..».

وإذا سألت من اشتركوا في جرائم ضد أمن الدولة عن سبب تمردهم لأجابوك بأنهم على حق، وأنهم كانوا ينشدون الخير والحرية والنصر لأمتهم، وأنهم مظلومون مفترى عليهم.. و.. و...الخ.

وقس على ذلك المتهمين في جرائم الاختلاس والتزوير والمخدرات وغيرهم، فستجد الإجابات واحدة في جوهرها، وستجد أن كل واحد لا يعترف إلا بشيء واحد يضحك به على نفسه، هذا الشيء هو «أنه مظلوم».

فإذا ما تحدثت لهم عن القوانين التي حوكموا على أساسها، وأن هذه القوانين لا تعرف إلا إحقاق الحق، وإقرار العقاب العادل، وأن هذه القوانين من صنع المجتمع الذي ارتضاها مقياسًا تقاس به أعمال الناس وتصرفاتهم حتى لا يظلم أحد أحدًا، ولا يطغى إنسان على إنسان، إذا قلت لهم مثل هذا الكلام، هزوا رءوسهم في إنكار واشمئزاز ورموك بالتجني والمغالاة، وقد يكون الواحد منهم في قراره نفسه يحس بما أتى من وزر، وما اقترف من إثم لكنه لا يريد التصريح بذلك، وقليلون أولئك الذين يعترفون بأن الذي نالوه عقاب حق رادع، لهذا يقول الأستاذ أحمد حسن الباقوري [1] :

---

(1) مجلة السجون أغسطس سنة 1956.

«.. إن أكثر الذين يقترفون الإثم، ويواقعون الشر لا تواتيهم الشجاعة أمام أنفسهم، فلا يقفون منها موقف اللائم المحاسب. بل إن كثيرًا ما يذهب بهم الضعف إلى حد التماس المعاذير لأنفسهم وتهوين الخطأ عليها، وإلقاء التبعة على غيرها..».

لا غرابة في ذلك.. فإن الحق والباطل كثير ما يخضعان للاعتبار الشخصي، والهوى الخاص، فما تراه حقًا قد يراه غيرك على النقيض، غير أن هناك بديهيات لا جدال فيها ولا مراء، ومع ذلك فإن مجتمع السجون يأبى إلا أن ينكرها ويحاول التخلص منها أو قلبها قلبًا صريحًا..

وليس معنى ذلك أن السجن ليس فيه «مظاليم»، فإن من المسلّم به أن كثيرين قد يوقعهم سوء الطالع، أو نكد الحظ في خطأ لا دخل لهم ولا جريرة فيه، وقد يؤدي التدبير الشرير، أو شهادة الزور إلى الإضرار بأحد الأبرياء، فتوقع عليه عقوبة ليس له فيها أدنى ذنب، ففي بعض جرائم القتل يعمد أهل القتيل إلى اتهام عميد العائلة رغم أنه بريء مما ألصق به، وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر: ينتقمون للجريمة التي وقعت عليهم أولًا في شخصية كبيرة ذات تأثير، ثم يضمنون الحصول على الأموال التي يحكم بها القانون كتعويض من الجاني ثانيًا.

إن في السجن بعض المظاليم، لكن ليس كله من المظاليم كما يتوهم الكثيرون ومن الملاحظ أن أولئك المسجونين الذين يصرون على القول بأنهم مظلومون، يصبح هذا القول عندهم



في منزلة العقيدة التي لا تتزعزع. ولا شك أن شعور الظلم يدفع الإنسان إلى السخط والتمرد والكراهية فيتلفت السجين فلا يجد أمامه إلا الدولة والقانون الذي ترعاه، فيوجه إلى تلك السلطة - سلطة الدولة والقانون- قذائف سخطه وغضبه، كما يوجه عددًا من هذه القذائف أيضًا إلى الزمان والأقدار والدنيا الخائنة وهذا واضح غاية الوضوح في أغاني[1] النزلاء ومواويلهم -وهي ذات دلالات مهمة- فهذا نزيل يقول في أحد مواويله: «والله إن عشت لكم يا حكومة للبسكم بدل الحرير الفل»، وكانت هذه الظاهرة أبرز ما تكون في الفترة الماضية (ما قبل عام 1952)، حينما كان السجين محرومًا من التدخين وأكل «الكانتين»، وكان عرضة للكثير من القسوة والاضطهاد والزراية.. أما بالنسبة لسخط النزيل على الأيام والليالي التي وضعته هذا الموضع فهونوع أيضًا من الهروب من نفسه، وإلقاء التبعة على أن كائن آخر سواه حتى لا يتعرض للذعات الندم، وسياط الضمير القاسية..

استمع إلى أحد النزلاء وهويقول:

ليه يا زماني بتدي الناس وتنساني
خليت لي إيه يا زمان همي وأحزاني

(1) في الأيام الأخيرة دأب المشرفون على بعض السجون تحفيظ النزلاء أناشيد وطنية يرددونها في الطوابير والحفلات الوطنية..

اسمع نصيحتي وأوعى الدهر ليغرك
إيـاك تـآمن لـو عـد الـدهر مـن تـاني

إن الأيام خائنة في نظره، وهو ضحية عسفها وظلمها، لأنها أو قعته في هذا المصير المحزن حسبما يظن، فليعلن ثورته عليها، وليحذر الناس من الركون إلى وعودها، والاغترار بأمنياتها.. ومثـل هـذا الـشعور يـورث الحسرة والألم، ويـدفع إلى التـأوه والنحيب، فينطق البعض بالحكمة، أو يحببهم فيها على الأقل فيترنمون بها:

أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل
وأيام بتيجي على أولاد الكرام تنذل

إن عبارة: «ياما في السجن مظاليم» لها بواعثها ودوافعها، فهي ترسم صورة صادقة للفلسفة للنزلاء، وتكشف الكثير عن حقيقة معتقداتهم واتجاهاتهم، فالإنسان المظلوم، دائمًا يترقب اليوم الذي ترد فيه ظلامته، وينال فيه حقه، فيحيا على ذلك الأمل الحلو، فلا عجب إذن أن يحاول المسجون أن يجعل من نفسه مظلومًا -إذا لم يكن مظلومًا بالفعل -وفيم العجب وكثير من علماء الاجتماع والجريمة يؤكدون أن الجريمة ما هي إلا نتاج المجتمع، وثمرة من ثمرات تفاعله واصطراعه، وما المجرم في نظرهم إلا ضحية من ضحايا المجتمع، أو شهيد من شهدائه،



فهل نعجب إذا التقت نظرة علماء الاجتماع مع انفعالات السجين النفسية في صعيد واحد؟؟

(ك) عقوبة الجلد بطولة:

وليس معنى ذلك أن السجناء يسعون وراءها، وينشدون الحصول عليها حتى يكتسبوا تلك البطولة، أو يحظوا بهذا الفخر، لكن تلك العقوبة كما قلنا آنفًا، لها ارتباط وثيق بمخالفة اللوائح، وعصيان الرؤساء، فقد قلنا أن عداوة الإداريين في السجون، والتوجس خيفة منهم، والافتخار بالصدام معهم، تقليد متفق عليه، وعرف جار، لهذا فإن عقوبة الجلد المترتبة على ذلك تحمل في طياتها نوعًا من التضحية والبطولة كما يعتقدون، ومهما كان سبب الجلد، فإن السجين -كما أسلفنا- لا يريد أن يقر إلا بأنه مظلوم.. مظلوم.. وهذا قد يدعوإلى رفع روحه المعنوية واستشعار التضحية المشار إليها..

لهذا فإن السجين الذي يقاد إلى «العروسة» كي يجلد، يجب أن يضع أمام ذهنه ما سيقوله عنه زملاؤه من النزلاء إذا ما تأوه أو بكى أو استغاث.. إن ذلك الانهيار معناه القضاء على سمعته، ووصمه بوصمة العار والضعف، وسيسير بين النزلاء خافض الرأس كسير النظرات، أشبه ما يكون بالعذراء التي فقدت شرفها.

أما الرجل الحقيقي «اللي راضع من بز أمه» -كما يقول النزلاء فهو الذي يتحمل الجلد[1] بقوة ورباطة جأش، وعدم اكتراث مهما كان الجلد قاسيًا ومهما كان عدد الجلدات كثيرًا.

وإنك لتسمع كثيرًا من النوادر الخاصة بعقوبة الجلد من أفواه النزلاء، وفي هذه النوادر ما يحمل معنى الإعجاب والثناء على بعض السجناء، ومنها ما يحمل معنى السخرية والاستخفاف بسجناء آخرين.

فهناك نزيل في الليمان يطلقون عليه اسم «حميدة» مع أن اسمه الحقيقي «حامد»، والسبب في ذلك أنهم قد وجدوا معه أثناء التفتيش شفرة حلاقة -قبل وجود الصالونات في السجون- فقررت له عقوبة جلد، وعند توقيع العقوبة صرخ حامد قائلًا: «أنا في عرض البيه المأمور.. في عرضك يا سعادة البيه..». ولم يسلم حامد بعد ذلك من تعليقات زملائه اللاذعة، وتعنيفهم له.

وعقوبة الجلد عقوبة «محترمة» في نظر السجين «الأصيل»، لأن الصفعات والضرب على القفا والركل، كل هذه الأشياء مدعاة للحطة والمذلة والاحتقار، لهذا يحاول «الأصلاء» أن يتجنبوها..

(1) لقد ضيقت لائحة السجون (عام 1956) مجال عقوبة الجلد وجعلته قاصرًا على التمرد الجماعي أو الاعتداء على أحد موظفي السجن من المدنيين أو العسكريين.

وليس كل النزلاء على هذه الوتيرة، فكثيرون من أمثال حامد -وخاصة اللصوص منهم- لا يقيمون وزنًا لنوع العقوبة البدنية التي يتلقونها سواء أكانت صفعًا أو ركلًا أو ضربًا على القفا أو جلدًا، ولا بأس من أن يصرخوا ويستغيثوا ويتخذوا أي وسيلة للإفلات من العقوبة أو تخفيفها.

ويلاحظ دائمًا أن فئات المسجونين ليسوا من طبيعة واحدة، ولهذا فإن مسألة التصنيف والفصل التي سنشير إليها فيما بعد من الأهمية بمكان..

(ل) المساواة في الظلم عدل:

إن مجتمع السجون -ذلك المجتمع المريض- فيه كثير من التناقض وهذا أمر طبيعي في نظري، وماذا ننتظر من ذلك الوسط الموبوء بالجريمة، والذي لم يلتفت إليه المصلحون، ويولوه الرعاية والدراسة والتوجيه إلا منذ زمن قصير؟؟ أقول إن هناك كثيرًا من التناقض، فبينما ترى عشرة من النزلاء يجلسون في حلقة واحدة، ويتبادلون نصف سيجارة كل واحد منهم يجذب منها «نفسًا» قصيرًا ويعطيها كل واحد منهم لأخيه في مودة وتعاون وتقدير، بينما ترى هذه الصورة المتكررة ذات الدافع النبيل، ترى صورة أخرى كلها حسد ونقمة وأنانية...

إن أحد النزلاء إذا حظي بالحجز في مستشفى السجن فسيكون ذلك مدعاة لحقد زملائه عليه، وتغيظهم منه، لأنه -كما

يعتقدون- قد تميز عليهم بهذه الطريقة، وسينعم بالراحة والنوم على سرير، وسينجو من شر العمل في الجبل أو الورش، أما هم فسيظلون يقاسون البلاء والتعب، وسيكون غيظهم وحقدهم أشد وأقسى إذا كان زميلهم المحجوز في المستشفى ليس مريضًا لدرجة خطيرة يتطلب معها حجزه هناك، أو إذا كان أحدهم - كما يبدو - أشد مرضًا منه..

وفي مثل هذه الحالة يبادر بعض النزلاء بكتابة الشكاوى إلى الديوان ضد الطبيب، وضد النزيل المريض نفسه، وقد تكون ضد إدارة السجن أيضًا، تلك التي قد تتهم بالمحاباة وتطبيق الاستثناءات على بعض المحظوظين..

والحسد لا يتناول المحجوزين في المستشفى فقط، بل يتعداهم إلى أولئك الذين قد وقعوا في عمل مريح مثل المكتبة أو المكاتب أو الكانتين، ويتناول أيضًا أولئك الذين يحظون ببعض العطف من رؤسائهم..

إن أمثال هؤلاء النزلاء يرون أن المساواة في الظلم عدل، ويحسون بشيء من الراحة والرضا إذا كان الجميع سواء بسواء تحت ظروف واحدة، والنفس البشرية بطبيعتها يخالطها شعور معين تجاه من هم فوقها أو يتميزون عليها، وخاصة في هذا المجتمع المريض..

إن كلمـة «إشـمعنى» ذات أثـر فعـال وخطـير في مجتمـع السجون، وقد تسبب كثيرًا من المتاعب والاضطرابات المختلفة هناك..

(م) الإشاعات ضرورة اجتماعية في السجون:

هناك بعض الشخصيات المعمرة في الليمان والسجون، وتلك الشخصيات قد يكون لها بين النزلاء منزلة خاصة لما يتميزون به من علم أو كياسة أو ذكاء فلا يعدم الأمر أن يكون منهم من كان طالب علم في الأزهر أو المدارس ثم فسد، وقد يكون منهم من يحفظ القرآن، أو يفهـم شيئًا في الأمـور السياسية، أوله درايـة ببعض المسائل القانونية.. هذا الصنف المعين من النزلاء يعتبر «مـصادر موثـوق بهـا»، فـإذا مـا وردت إلى الـسجن شـائعة مـن الـشائعات تتعلـق بالوضـع الـسياسي أو الاقتـصادي في الدولـة بادروا -أعني هذه المصادر الموثوق بها- بالتعليق عليها، ووضع الاستنتاجات التي يرونها، وغالبًا ما تكون استنتاجاتهم في خط واحد معروف يتعلق بمصير السجناء، وبموضوع الإفراج عنهم أو عدمه، وفي أكثر الأحايين تكون هذه الاستنتاجات مقصودة قصدًا، لا يراعى فيها الدقة أو تحري الحقائق، لأن المهم عندهم هو التحليل والاستطراد اللذان يؤديان إلى نتيجة واحدة وهي أن فرصة الإفراج أصبحت قريبة جدًا..

فالسجين يتـوهم دائـمًا أن مجتمـع الـسجن هـو كـل شيء، وأن النـاس في الخـارج لا يفكـرون إلا فـيهم، وأن الحكـام لا يغـيرون

وضعًا ولا يتخذون سياسة إلا ووراءها هدف معين، وهو مصلحة السجين..

إن السجين يعطي نفسه أهمية فوق الحقيقة بمراحل عدة، وهذا الوهم أو الاعتقاد يترجم عنه تلك «المصادر الموثوق بها» والتي تتلقى الشائعات، فتصوغها صياغة جديدة، وتضيف عليها ما تشاء، وتحذف ما تشاء، وقد تصحح فيها بعض الوقائع حتى تأتي بالغرض المطلوب منها..

أما كيف تأتي هذه الشائعات، فهناك طرق عدة لها..؟!

فمثلًا قابل مأمور السجن أحد أقربائه من النزلاء، وأراد أن يجامله فقال له «شد حيلك.. تهون.. بكره ربنا يفرجها..» وتصادف في هذا الأثناء أن عيد الأضحى كان قد قرب، وسرعان ما سرت شائعة في الليمان تؤكد أن مأمور السجن قال: إن هناك عفوًا شاملًا في العيد الكبير..

إن كلمة عابرة من ضابط..

أوخبرًا تافهًا من سجان..

أوعبارة عارضة من أفواه أحد النزلاء الجدد..

أونبأ عاديًا في زيارة من الزيارات..

أوكلامًا بسيطًا يدلي به أحد موظفي السجن..

إن واحدة من هذه كفيلة أن تصنع منها «المصادر الموثوق بها» في السجن شائعة ضخمة رنانة، تطرق باب كل زنزانة،

وتصل إلى سمع كل سجين، وقد تتعدى أسوار السجن إلى من في الخارج..

وهناك شائعات أخرى تقال للتسلي أو التشفي، كتلك الشائعات التي تتعلق بنقل ضابط أو سجان، وشجار ضابط مع آخر من أجل مصلحة السجون، أو تتعلق بسلوك بعض الإداريين الشخصي، وقد يصل به الحال إلى التكهن بالأسرار العائلية والمنزلية، وغالبًا ما تكون هذه الشائعات مختلقة اختلاقًا..

ومع ذلك فالشائعات -رغم ثبوت كذبها عشرات المرات- ضرورة اجتماعية في السجون، إذ لا بد لهم أن يعيشوا على الأمل، يخلقونه خلقًا، ويبتدعونه ابتداعًا، ويحيطونه بما يجعله سائغًا مقبولًا، ولا بد أن يشارك النزلاء في أحداث الحياة، ومشاكل السياسة، وأمور المجتمع، وهذه المشاركة تكون بالطريقة التي تتناسب مع وضعهم وأحلامهم وبواعثهم النفسية، لهذا فهم يختلقون الإشاعات ويتلذذون بها، بل إن من يصنعونها قد يتلذذون بها أيضًا، ويخدعون أنفسهم كما يخدعون غيرهم، تمامًا مثلما فعل «أشعب» [أمير الطفيليين] حينما أراد أن يتخلص من مطاردة بعض الأطفال له، فزعم لهم أن هناك في بيت «فلان» مأدبة كبيرة لمن شاء أن يأكل، وفعلًا تركه الأطفال وأسرعوا ليلحقوا بالمأدبة.. فوقف أشعب متفكرًا لحظة، ثم أسرع خلف

الأطفال لعله هو الآخر يحظى بالمأدبة التي ابتكرها خياله الخصيب..!!!

إن الشائعات لدى المسجونين نوع من أحلام اليقظة، وزاد روحي يملأ فراغ نفوسهم وقلوبهم، ويرفه عن آمالهم الكليلة، وحاضرهم المرير الجريح الحزين..

***

هذه هي بعض القيم والمعتقدات الغالبة على مجتمع السجون، وفي اعتقادنا أن مجتمع السجن كالجسد المريض، وما هذه القيم المختلة، إلا أعراض المرض وشواهده وإن بسطها على هذه الصورة وعرضها هذا العرض، مع ضرب الأمثال والتحليل الدقيق لما يساعد على التماس العلاج الناجح، والشفاء المرتقب.. لكن هناك كلمة حق يجب أن تقال..

إن نزلاء السجون ليسوا على وتيرة واحدة، ولسوا على درجة واحدة من التشابه في القيم والسلوك والجرائم، فهناك بعض المحكوم عليهم في جرائم معينة ليس من طبيعتهم الإجرام وليس في خلقهم شذوذ أو انحراف بالمعنى الصحيح، وهؤلاء قد أقدموا على فعل ما اقترفوه من جراء غضبة عارضة، أو ثورة انفعالية طارئة لا تكاد تتجاوز لحظات محدودة..

ومثل هؤلاء يحسون بجسامة ما اقترفوا، ويؤرق عليهم الندم حياتهم وسعادتهم، ولا ينكرون أبدًا أنهم وقعوا في خطأ يستوجب العقاب..

وكثير من هؤلاء لا تتزلزل القيم الكبرى في نفوسهم، ولا تهتز المثل العليا القويمة التي آمنوا بها من قبل، واطمأنت إليها ضمائرهم، وينعكس كل ذلك على تصرفاتهم داخل السجن ، فترى الواحد منهم يواظب على الفرائض الدينية من صلاة وصوم وتسامح، وقد يعمد إلى نصيحة غيره من النزلاء.. وتراه يتجمل بالصبر، فلا يدفعه طول المدة إلى الشذوذ والانحراف، ولا يحمله الحرمان والقسوة في سجنه على التمرد على اللوائح، والتصدي للمشرفين على إدارة السجن..

وتراه يتعجل أيام السجن في قلق، كي يعود للاندماج في المجتمع بنفس صافية رادعة لا مكان فيها للحقد والزيغ والإصرار على الجريمة..

ولنا أن نقرر أنه قد يحدث عكس ذلك تمامًا.. لكن بقي سؤال..!! هل نترك تلك القيم الفاسدة، والعقائد الشاذة، تنخر كالسوس في عظام هيكل مجتمع السجون حتى توروده الفناء والضياع التام، وحتى يصبح ذلك المجتمع المريض ميئوسًا منه، ومصدرًا من مصادر التهديد والتدمير والتعويق في مجتمع بلادنا؟! طبعًا لا..

فما هي الطريقة إذن لتصحيح هذه القيم، وتنقيتها مما علق بها من شوائب وأوهام وسموم؟؟

إننا سنجيب على هذا السؤال الهام في موضع آخر إن شاء الله..

***

ولا يفوتنا في هذا الفصل أن نشير إلى بعض المصطلحات «السجنية» التي يرددها النزلاء حتى لا ينكشف أمرهم، لأنها تتعلق ببعض الممنوعات التي تعتبر حيازتها أمرًا مخالفًا للقانون، من ذلك:

شفرة الحلاقة ويطلقون عيها بشلة

العملة ذات القرشين ويطلقون عيها زرار

الساعة ويطلقون عيها ترمسة

لفاقة التبغ ويطلقون عيها تفتافة (قبل أن يباح التدخين)

النار أو الثقاب ويطلقون عيها عين

العملة ذات العشرة قروش ويطلقون عيها عنترة

«الخمسة» ويطلقون عيها بشلك

الأفيون ويطلقون عيها عليه زيتون أسود

الحشيش ويطلقون عيها زيتون أحمر

البصل ويطلقون عيها فرخة (وكان ممنوعًا من قبل)

الرغيف ويطلقون عيها ويطلقون عليه بابا (لأن الاتجار فيه كان ممنوعًا)

اليمك (طبيخ السجن) ويطلقون عيها ماما (لأن الاتجار فيه كان ممنوعًا)

· السكر ويطلقون عيها الرز.... إلخ

وهناك مصطلحات أخرى كثيرة غير هذه الممنوعات، فمثلًا إذا شعر أحد النزلاء بالسجان على وشك أن يبغتهم أو يفتشهم صاح قائلًا «العربية»، أما إذا كان الضابط هو القادم صاح قائلًا «تاكس» وهكذا..

***

الفصل الثاني
الجريمة والعقاب

أ - الجريمة



♦ هل الجريمة كما يقول البعض ثمرة لظروف اجتماعية معينة، وتفاعلات مختلفة في البيئة تشترك فيها عناصر الاقتصاد والسياسة والمعتقدات والمناخ والتقاليد والثقافة و.. و.. الخ؟؟

♦ وهل الجريمة غريزة في النفوس؟. أم أنها ظاهرة مرضية لا تبدو إلا عند بعض الأشخاص...؟؟

هذه أسئلة ثلاثة وقف عندها الباحثون الاجتماعيون، ورجال القانون المهتمون بشئون الجريمة والعقاب، فعلى أساس الإجابة على هذه الأسئلة المهمة، سنوضح السياسة الملائمة وما تستلزمه من لوائح وقوانين وتنفيذ..

الشيطان والجريمة:

إن من أبرز الأسباب التي تعزى إليها الجريمة هو الشيطان، وقد يسمونه إبليس، وما زال الشيطان وما يوسوس به لابن آدم من ضلال وإثم وإغراء أمرًا معترفًا به في جميع الأديان.. ولقد أدرك الأقدمون من رجال الدين قبل الإسلام ما للشيطان من أثر في السلوك الإنساني، فلفت الكهان والعرافون نظر الناس إلى مصدر الشر والخطيئة، وأعطوهم صفات وأساليب عدوهم

اللدود، كما شرحوا لهم نواياه الخبيثة، وأكدوا لهم أن رسالة الشيطان في الحياة -وهي رسالة ليس له غيرها- هي الإغواء والتضليل، ودفع الإنسان لاقتراف شتى ألوان الجرائم، الانغماس في الشر والرذيلة، ومخالفة أوامر الله التي تأمر بالبعد عن المعاصي، والعمل في حقل الطاعات..

لقد صور رجال الدين الأمر بصورة معنية.. هي أن الحياة، معركة حامية الوطيس بين الإنسان والشيطان..

والمهم في هذه المعركة أن رجال الدين أكدوا [1] للإنسان أن له النصر على الشيطان مائة في المائة إلا إذا فرط أو تراخي أو تهاون في هذه المعركة المقدسة.. فالهزيمة -في نظر رجال الدين- هي عدم إعطاء المعركة حقها من الإعداد المادي والمعنوي، وإن مثل المستسلم لنزواته ولوساوس شيطانه كمثل الهارب من معركة يطأ العدوفيها أرضه، أو كمثل الوطني الذي يسلم نفسه أسيرًا -بمحض رغبته- إلى يد الأعداء يفعلون به ما يشاءون..

فليس هناك عذر -كما يرى رجال الدين حينذاك- لإنسان يُهزم أمام الشيطان، لأن الإنسان معه سلاح مهم، متى أجاد استعماله واعتصم به، نجا وفاز، وانتصر في المعركة.. هذا السلاح هو سلاح الإرادة.. وتعرض رجال الدين للإرادة

(1) هناك بحوث دينية طويلة لكثير من الفقهاء والفلاسفة المسلمين وغيرهم عن مشكلة الجبر والاختيار في الإسلام.

بالوصف والتحليل، وأرشدوا الناس إلى طريقة تقوية هذه الإرادة وتنميتها وما إلى ذلك عن طريق الصبر والرياضة والقناعة، والعفة.. و.. الخ

وهنا يثب سؤال له أهميته القصوى..

إن الإنسان -لا شك في ذلك- ذو إرادة..

لكن هل هذه الإرادة مطلقة؟؟؟

يجيب الدكتور ملاك جرجس على هذا السؤال قائلًا [1] :

«من المعروف أن بعض العمليات الجراحية في المخ كاستئصال الفصين الأماميين أو فصلهما عن بقية أجزاء المخ إلى غير ذلك من العمليات التي تجرى للحالات المستعصية في الأمراض العقلية، تتسبب في نقص ذكاء الفرد نقصًا قد يصل إلى 30٪ من أصل مقياس ذكائه قبل أن يصاب بالمرض العقلي المستعصي، كما أنها كثيرًا ما تتسبب في تدهور قدرة المريض على تحمل المسئولية والسلوك سلوكًا اجتماعيًا يتناسب مع سنه كسلوك طفل لا يعي مما حوله كثيرًا، ويتبول على نفسه.. إلى غير ذلك من صفات الطفولة، إلا أن هذا التدهور في الشخصية يمكن استدراكه بمعاودة تدريب المريض على العادات الاجتماعية التي سرعان ما يسترد معظمها، كما أنه يسترد كيانه الاجتماعي لدرجة كبيرة، لكنه لا يسترد النسبة التي فقدها من

---

(1) مجلة السجون (مارس سنة 1957).

ذكائه... وآرائي تتلخص في أنه ليس هناك حرية إرادة بالمعنى المطلق الذي يفترضه رجال القانون من قديم الزمن، بل إن سلوك الفرد إن هو إلا نتيجة طبيعية للعوامل والظروف التي نشأ فيها والتي تعتمل في كيانه..».

فإرادة الإنسان ليست إرادة مطلقة تمامًا..

والإنسان -كما في الحديث النبوي- بين الجبر والاختيار، أي أنه ليس هناك إرادة مطلقة أو جبر مطلق، وإنما الإنسان يتماوج بينهما..

وهذا شيء يوضحه ويؤكده الفحص العلمي والطبي والاجتماعي.. وما زالت في مجتمعنا ظاهرة إلقاء اللوم على الشيطان، ورمي الوزر عليه..

سألت أحد المحكوم عليهم في «هتك العرض» وقلت له:

- «كيف تقدم على هذه الجريمة، وأنت الشاب الدمث الخلق.. المتعلم؟؟»

فقال في أسف:

- «الليل غدار.. والشيطان شاطر.. ربنا يسامحنا..».

ولما سئل أحد الذين أعدموا في جريمة قتل سياسية عمن اشتركوا معه في جريمته، قال:

- «نحن ثلاثة»

- «من؟؟»

- «أنا.. وشيطاني.. ومسدسي»

ولم تزل جماهير الشعب تنحى باللائمة على الشيطان..

وما زالوا يعدونه أس البلاء، ومنبع كل شقاء..

وما زال هو العدو الأول لبني الإنسان وسعادتهم ورفاهيتهم.

والبعض الآخر يرى أن الشيطان ما هو إلا رمز الجانب الشرير في طبيعة الإنسان.

البيئة والجريمة:[1]

يرى الكثيرون من علماء الاجتماع والجريمة -كجزء من النظرية الواقعية- إن للبيئة الأثر الأكبر، والدافع الأول لارتكاب الجرائم، لهذا فإن نظرتهم قد تغيرت كثيرًا بالنسبة للمجرم عن ذي قبل.

والواقع أن لكل بيئة فاعليتها وتوجيهها لعقول البشر وغرائزهم الفطرية، إذ أن كل مجتمع له قيمة الخاصة، ولكل بيئته معاييرها التي تقيس بها الأمور ومبادئها التي تؤمن بها..

فالعرب في جاهليتهم كانوا يستبيحون السلب والنهب، فتمضي القبيلة من القبائل تذرع الصحراء شرقًا وغربًا حتى تجد

---

(1) إن علماء الجريمة قد ذكروا العوامل التي تؤدي إلى الانحراف وانقسموا إلى مذاهب مختلفة، لكن هذه العوامل تنحصر في: 1- عامل بيولوجي 2- عامل نفسي 3- عامل عضوي 4- عامل اجتماعي.

العشب والماء فتحل هناك، وقد تنازعها قبيلة أخرى فتجلوها عن هذا المرعى الخصيب فيصير الكلأ والماء للأقوى منهما، وكان هذا عرفًا جاريًا، وتقليدًا متبعًا..

وفي الصعيد ينشأ المرء في بيئة خاصة تؤمن بالثأر وتجعل منه قيمة ومثلًا أعلى، له تقديسه واحترامه، والذي يتحلل منه، يصير موضع الهزء والسخرية والعار الشنيع..

وفي السجون قيم متعارف عليها، تعتبر في حكم الأمر المقرر المفروغ منه، وفي بعض البيئات كانت تغلب نزعة الشجاعة والفتوة فتنتشر «فضيلة» الفروسية، وتلتصق بشرف الأسرة وسمعتها..

وفي بعض البيئات يغلب على الطبع حب المال حبًا جمًا، ويلجأون إلى شتى وسائل المكر والاستغلال والخديعة للحصول عليه.. وفي بعض البيئات مثل قوم لوط كان اللواط أمرًا مستساغًا يُسعى من أجله ويتمسك به تمسكًا شديدًا..

وهناك بعض البيئات التي تتسم معاملاتها للمرأة بالكبت والتحفظ الشديد، وتعتبر أدنى قسط من الحرية لها ضربًا من العهر والفجور، وأدنى شك في الزوجة قد يؤدي إلى قتلها، وهاك اعترافًا داميًا من النزيل (أ.ف) [1] :

---

(1) السجون (يناير سنة 1955).

«كنت زوجًا سعيدًا أنعم ببيتي وزوجتي، ولم أكن أرى الحياة إلا باسمة مزدهرة، وأنا بطبيعتي أقنع بالقليل، وأؤمن بأن الرغيف الذي أحصل عليه، هو كنز مقدر علي أن أشكر الله عليه.. كنت سعيدًا بحق.. ومرت بي الأيام ناعمة هادئة.. ثم جاء اليوم الذي تعكر فيه صفوأحلامي التي كنت أحيا فيها.. وذلك حين تنامى إلى سمعي شائعة خيانة زوجتي.. وأنا يا سيدي من أسيوط.. ونحن هناك نرى الشرف أرفع بكثير من أن يمس..

ثارت ثائرتي وخرجت من عملي في غير ميعاد الخروج، وتوجهت مسرعًا إلى البيت، وهناك رأيت زوجتي ومعها رجل، كانا جالسين في صورة لا تثير ريبة أو شك في أن خيانة ما قد وقعت..

ولكني لم أكن أعرف الرجل، بل إني لم أره من قبل، وكنت حين دخولي أعاني ثورة نفسية عاتية، وفي اضطراب شديد..

سألت الرجل من يكون؟ فارتبك وتلعثم ولم يحر جوابًا، ونظرت إلى امرأتي فرأيت في عينيها خوفًا مريعًا فجن جنوني.. وشعرت بدمائي الساخنة تنطلق إلى رأسي، وتركت في نفسي مشاعر عديدة من الشعور بالخيانة والرغبة في الانتقام من هذه المرأة التي أدخلتها قلبي، وأطلعتها على سري.. فقد كان بيننا عهود..

أحسست بكل هذه المشاعر تموج بين جوانحي في لحظات سراع... ثم راحت تتلاشى رويدًا رويدًا.. إلا شعور واحد كئيب سيطر على خيالي في إصرار.. كان هذا شعور بأني مغفل.. نعم مغفل..

ورأيت تلك «السكين» على المائدة، وكانت زوجتي في أقصى حالات الرعب.. وكنت أنا ثائرًا أصرخ وأهدر، واقترب منها، ولففت ذراعي حول ظهرها، ثم ذبحتها ذبح الخراف من غير أن تنبس ببنت شفة، ولكني سمعت عشيقها يرجوني بصوت متحشرج ألا أقتلها ثم غمغم بكلمات كثيرة لم أفهم منها شيئًا، ولكني أجهزت عليها تمامًا.. واتجهت إليه، ولم يكن مصيره إلا مصير زوجتي..

كان هذا الرجل الذي وجدته مع امرأتي يقطن في قرية مجاورة، ويدعونه «الشيخ محمود»، وكان الناس يتبركون به، ويلجأون إليه في الملمات، ودعته زوجتي إلى البيت مرات عديدة، لأنها كانت لا تخرج مطلقًا، دعته ليبرئها من العقم، ويدعولها أسياد السماوات والأرض لينقذوها من هذه الأزمة.. ولم يكن الذنب ذنبها يا سيدي.. بل ذنبي أنا.. أنا كنت ألومها، لأنها لم تنجب لي ابنًا يرث قوتي ووجودي..

ثم عرفت أنها بريئة من كل خيانة..

وأن الشيخ محمود كان من الأتقياء الصالحين..

سيدي.. أنا معذب. فليرحمني الله..»

إن هذه القصة التي كتبها ذلك المذنب فيها الكثير..

أجل فيها الكثير عن البيئة التي تحمل المرأة فوق ما تطيق، وترغمها على أن تنجب.. وفيها الكثير عن البيئة التي يحكم فيها على المرأة بالقتل لمجرد الشبهة.. وفيها الكثير عن البيئة التي يندفع فيها الإنسان برعونة وطيش.. ويعيش في قيود التقاليد القاسية، وظلمات العادات التي لا ترحم.. (1)



وهناك بعض البلدان التي تميل إلى الكسل والتراخي والخمول كما في المناطق الحارة مثلًا، والبعض الآخر يتميز بالنشاط والإنتاج.. وفي النواحي التي تكثر فيها البطالة والضيق الاقتصادي تكثر الجرائم والأعمال الشاذة..

وعقب الحروب تهتز القيم، ويقل الاكتراث بالحياة ن نظرًا لأن الحرب مليئة بالفظائع والأهوال، والقتل فيها صنعة أساسية يجب أن يتقنها ويعترف بها الجميع، وإلا فستقتل قبل أن تقتل..

وبعض المجتمعات تغلب عليها نزعة التمرد الزائد، والتحلل من قيود الدين والفن والأخلاق، والبعض الآخر تصطبغ حياته بالمحافظة الشديدة على الشعائر الدينية والخلقية..

(1) إن «وليم بنحر» الهولندي يعزو الإجرام دائمًا إلى الأحوال الاجتماعية العامة.

ومن هنا يرى علماء النظرية العقابية الوضعية (الواقعية) [1] أن المجرم الحقيقي هو المجتمع، وأن الإنسان الجاني ما هو إلا «تعبير» أو «انعكاس» لمشاعر المجتمع، ونتيجة من نتائج قيمه ومعتقداته ومثله العليا، فاللوم يقع على المجتمع ككل ذلك الذي أوجد المسببات وأتاح الفرصة للجريمة، وأوجد لها الجو المناسب والتربة الخصبة. فالمجتمع في نظرهم هو الذي يصنع المجرمين.

والعلاج يجب أن ينصب على صانع الجريمة أو المجرم الحقيقي وبالتبعية، سيصبح الفرد -الأداة التي يستخدمها المجتمع- سليمًا معافى، وبالطبع سيكون نصيب هذا الفرد جزءًا كبيرًا من العلاج.

فالمشكلة في نظرهم ذات شطرين.. شطر يتعلق بالمجتمع وهوا لأهم، والشطر الآخر يتعلق بالفرد الذي أخطأ، وهذا يجب أن تتاح له كل الفرص حتى يشفى. ويقول: «سوذرلاند»، إن السلوك الإجرامي ينتج عن مخالطة الفرد لأصدقاء أو أفراد مجرمين مخالطة أطول مدة وأكثر استدامة من مخالطته لغير المجرمين، ويكون للجماعة المنحرفة في نفسه الغلبة على الجماعة السوية [2].

(1) يعتبر «لمبروزو» مؤسس المدرسة الوضعية في علم الإجرام.

(2) نظرة المخالطة المتفاوتة: differential association

الغرائز والجريمة:

ما السر في أن أخوين ينشآن في بيئة واحدة، ويخضعان لنفس الظروف المادية والمعنوية، ومع ذلك تختلف طبيعتهما، ويتغير مجرى حياتهما؟؟

يؤكد علماء النفس أن هناك كثيرًا من الأحداث التي تبدو تافهة عابرة، والتي تمر بحياتنا مرورًا سريعًا، ومع ذلك فهي تترك أعمق الأثر في النفوس لأن فترة الطفولة فترة حرجة دقيقة في حياة الإنسان، وما يلاقيه الطفل من أحداث وصدمات فردية، قد تشكل مستقبل حياته تشكيلًا خاصًا، وقد تدفعه إلى طريق لم يخطر على بال ذويه بأي حال من الأحوال..

ويروي الأستاذ محمد فتحي أستاذ علم النفس الجنائي، أن بعض المجرمين الذين يحبون السجن ولا يريدون مغادرته هم صنف من الناس قد تمكنت في نفوسهم ظاهرة «الطفولة النفسية» أو «نزعة الاعتماد على الأم»، فمثل هؤلاء الأشخاص لم ينشأوا على الاعتماد على النفس، ولم يقذف بهم في غمار الحياة حتى يفشلوا وينجحوا، ويسروا ويساءوا.. بل اعتمدوا كلية على أمهم منذ أن تعلموا كيف يتغذوا بلبانها، ثم درجوا على أن تقدم لهم طعامهم وشرابهم وملبسهم، فاستطابوا هذه الحياة الخالية من الكدح والتفكير في الحصول على ما يريدون، وما أن كبروا وأصبحوا رجالًا وأرغمتهم الظروف على العمل وملاقاة الحياة

بألوانها المختلفة حتى جبنوا وفروا إلى السجن، هاربين من تحمل المسئوليات، ونتائج الفشل أو النجاح..

إن كل إنسان له غرائزه الفطرية..

وهذه الغرائز تتأثر بما يحيط بالإنسان من مظاهر البيئة المختلفة، وهذه الغرائز أيضًا تتأثر بالصحة البدنية، فمثلًا مرضى الغدة الدرقية Thyroid gland في بعض الحالات المعينة يتسمون بحدة في المزاج، وسرعة في الغضب..

والمرضى بأمراض خاصة ناتجة عن اختلال في هرمونات الجنس Saxual hormones تصاب غرائزهم بشيء من التحوير والتحويل، وتتخذ خطًا غير طبيعي، فقد تكون الغريزة الجنسية حادة عنيفة، وقد تكون خامدة كسولة..

وباختصار يجب أن ندرك تمام الإدراك أن الغرائز الفطرية شديدة التأثر، وشديدة الحساسية لما تموج به الحياة من حوادث وما يفرز في أجسامنا من هرمونات وإفرازات مختلفة، وما يصيبنا من أمراض عضوية كثيرة..

وهذه الغرائز في حاجة دائمة إلى فهم دقيق، ودراسة علمية مستفيضة، وعلى هذا الأساس يقوم تهذيبها وتوجيهها إلى السير في طريق سوي، ولن يتأتى ذلك إلا إذا وضعنا نصب أعيننا الحالة الجسمانية وما تحتاجه من رعاية طبية والذي نريد أن نؤكده هنا أيضًا، هو أن الغريزة الفطرية إذا ما أصابها شيء من الخلل

لسبب من الأسباب التي تتعلق بالبيئة أو المرض الجسماني، فإنها قد تدفع إلى الجريمة..

والتبعة هنا على من تقع؟؟ إنها تقع على من يجهلون أو يتجاهلون هذه الغرائز وتحركاتها وما تتأثر به..

***

والآن.. هل آن لنا أن نجيب على الأسئلة الثلاثة التي بدأنا بها هذا الفصل؟؟

إن الإجابة ممكنة حسبما أعتقد..

فنحن لا نستطيع أن ننكر أثر البيئة في تكوين نفسية المجرم، ولا نستطيع أن ننكر أثر الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعقيدية في تكوين شخصية المجرم..

ولا نستطيع أن نتجاهل أيضًا أثر الأمراض المختلفة التي تصيب الجسم وتدفع المجرم إلى تفكير خاص، وإلى تصرفات بعينها..

كما أنه لا يمكننا أن نضرب صفحًا عن غرائز الإنسان الفطرية واتجاهاتها ومطالبها ومطامعها الخاصة.

فهذا طفل نشأ على الأرصفة في الشوارع بين المجرمين والسفاكين واللصوص والشواذ والمشردين، وهذا طفل آخر درج على الاعتماد على غيره، ثم وجد نفسه فجأة أمام الحياة يصارعها وتصارعه، وهذا طفل ثالث نشأ في بيئة مليئة بالكبت

والضغط، فلم يجد مناصًا من أن ينفث عن غرائزه وميوله في اتجاه غير سليم، وفي طريق غير طبيعي، وهذا إنسان آمن بقيم خاصة، وعقائد ذات طابع معين، فكان من الصعب عليه أن يهدم له إنسان آخر هذه القيم ويسفهها له، ويتصادم معه من جرائها، كل هذه أمور يجب أن توضع موضع الاعتبار والاهتمام.

السياسة والجريمة:

السياسة يقصد بها هنا نظام الحكم، وتصرفات الأداة الحاكمة تجاه للمواطنين، والفلسفة التي تقوم عليها معاملة الرعايا.

ففي ظل الحكومات الدكتاتورية الجائرة مثلًا، والتي يتغير حكمها بالضغط والإرهاب والاستبداد، والتي تحمي الإقطاع ووسائل الاستغلال، ويظهر الفرق شاسعًا بين الطبقات، في مثل هذه الحكومات تصاب الأخلاق والمعايير القيمية بأمراض فتاكة، ونواحي نقص تؤدي في النهاية إلى تمهيد السبيل للجريمة، وكثرة عدد المجرمين.

وفي ظل الطغيان يلجأ المجتمع إلى الاحتماء بالجبن والخوف، فتظهر صور متعددة للرياء والكذب طمعًا في النجاة، وخوفًا من سطوة الحاكم وبطشه، وفي مثل هذا الجو تنشر البطالة، ولا تتكافأ الفرص، فيتعلم الشعب الحقد والنقمة، وهذان يدفعانه إلى التفكير في التدمير والهدم، ولا شك أن الاستبداد كما يرى

الكواكبي [1] خلق تصطبغ به الأمة، وينتشر من أعلى إلى أسفل، فالحاكم المستبد يسقي من يليه كأس الاستبداد، وهم بدورهم يسوغونها لمن تحتهم حتى تصل إلى الفرّاش في المدرسة، والكناس في الشارع، الخفير في دوار العمدة، والعسكري في محل عمله.

هذا الجو السياسي المرتبك يهيئ التربة الخصبة للجريمة ويغذيها بمفاسده وأقذاره، ويرعاها نبتة صغيرة حتى تكمل ويشتد عودها، فينشأ جيل حائر المفاهيم، ملتبس السبل، قد أغشت عينيه المظالم والمفاسد والرذائل الخبيثة..

وستكون السجون هي الأخرى صورة للسطو والإرهاب والقسوة وإهدار الآدمية، فلا يزال النزلاء يذكرون أيام أن كان الانجليز يسيطرون على السجون المصرية سيطرة تامة، وينفذون فيها سياستهم الإجرامية، ويتلذذون بمناظر الجلد، ولقد بلغ الاستبداد بمدير السجون «وتنجهام باشا» أنه كان يحضر جلد مئات المسجونين -هو وخليلته وغيرهما- ويمتع الحاضرون أنفسهم بمنظر الدماء المراقة، ولا يتركون النزيل حتى يستحلف[2] وتنجهام بخليلته ويقول: «في عرض الست» أو «في عرض كلب الست» وفي مثل هذه الظروف ظلما تزدهر فضيلة، أو ينمو خلق حالٍ كريم...

---

(1) كتاب طبائع الاستبداد.

(2) مجلة السجون (مارس سنة 1958).

(ب) العقاب



إذا تساوت الإساءة والإحسان، ولم يختلف جزاء الخيرين عن الأشرار، وإذا أطلق الناس الحبل على الغارب فتصرفوا بمحض رغباتهم الشخصية وعلى ضوء هواهم وميولهم، إذا حدث ذلك، فستنقلب الدنيا رأسًا على عقب، وستصبح غابة يسكنها فئة من الوحوش والحيوانات المفترسة لا جماعات من البشر..

إن من الأمور البديهية هو الثناء والتشجيع ومكافأة المحسن حتى يمضي في طريقه قدمًا إلى الأمام، ويضع بعض اللبنات في بناء السعادة الإنسانية لنفسه وللناس، وكذلك من المسلم به أن المسيء يجب أن يوقف عند حده، وأن يستنكر بطريقة ما، وأن يوضح له مدى ما اقترف من إثم، وما جلب من أضرار للمجتمع الذي يعيش فيه..

فالجزاء -أعني جزاء المحسن والمسيء -كل حسب عمله- فطرة فطر الناس عليها منذ الأزل، وطبيعة إنسانية أقرتها المجتمعات المختلفة على حقب التاريخ، فوضعت للمجرمين العقوبات المختلفة التي تطورت وتغيرت بتغير الأيام



والأحـداث التاريخيـة، هـذه حقيقـة أيـدتها الأديـان، وأقرتهـا الفلسفات المتباينة، واعتبرت هذه الحقيقة عنصرًا من عناصر الحياة، وأداة من أدوات الوئام والسلام والعدالة الاجتماعية. (1)

ولقد كانت البشرية في فجر حياتها تتبع في نظم عقابها طرقًا أقرب إلى الوحشية والسذاجة منها إلى أي شيء آخر، كان القتل هـو السمة البارزة في العقوبة، لأنـه كـان حاسمًا سريعًا، فكـان قدماء المصريين يحكمون على الكاذب في قسمه بالقتل..

ثـم أخذت البشرية تحبو في طريق الحياة بتؤدة وهدوء، فلم يكفها الموت وحده، بل عمدت إلى لون من التعذيب والتمثيل حتى تجعل من الموت شيئًا صعبًا أليمًا في حد ذاته، فهذا يموت حرقًا، وهذا يقذف به من حالق، وآخر تقطع أجزاؤه قطعة قطعة حتى يتهاوى، أجل.. لقد تعقدت عقوبة الموت بتعقد الحياة... ثم سارت الأيام في طريقها.. ورأى الناس أن الموت لسبب قوي أو ضعيف نوع من الظلم والمغالاة تنفر منه النفوس السليمة، والضمائر الحية.. فأنشأت السجون ليحجز فيها الخطرون بدلًا من قتلهم، ولم يخطر ببال البشرية حينذاك أن ترك المجرم في هذه السجون وحيدًا في عزلة تامة عن المجتمع سوف يعطي الحاكم

(1) توجد عقوبات عجيبة في قانون البراهمة في الهند، وفي «الباسق» الذي دونه جنكيز خان فيما بعد.

فرصة أخرى كي يتشفى ويطغى بطريقة تجعل الموت في حد ذاته أمرًا مرغوبًا فيه..

في أثناء زيارتي لقبرص عام 1954 نزلت في ميناء «ليماسول» وعند زيارتنا لمعالمها ومتاحفها دخلنا إلى قلعة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد بعيد، وكان بهذه القلعة سجن رهيب ذو قبو موحش، وساحة مظلمة رطبة محفورة في الأرض على عمق بعيد الغور، وحينما دلفنا إلى هذه المغارة الكئيبة الرطبة، وجدنا آثارًا لهياكل بشرية بالية، ولقد علمنا أن هذه الساحة العميقة كانت في الماضي سجنًا.. أما طريقة إدخال السجين إلى هذا المكان الموحش فكانت غاية في الفظاظة والقسوة، إذ يقذف به من كوة في أعلى البناء، وقد يموت، وقد تتحطم عظامه، فإذا لم يمت بقى في هذه الساحة لفترة قد تطول –حسب تحمله- وقد يقذف إليه ببعض اللقيمات الجافة.. المهم أن هذا السجن الغريب لم يكن ليفرج عن أحد من نزلائه.

وظلت البشرية على هذا النمط من التخبط والعنف والإرهاق حتى جاءت الأديان وردت إلى المجرمين كثيرًا من الاعتبار والرحمة والمعاملة المعقولة، وقيدت العقوبات بقيود دقيقة وخاصة الشريعة الإسلامية - ومن قبلها الشرائع الرومانية، وكان أهم العقوبات من النوع الجسدي الإيلامي.

***

ثم فلسفوا العقوبة أخيرًا وجعلوا لها أغراضًا معينة.

أولًا: اعتبارها جزاء عادلًا للمجرم كأمر طبيعي.

ثانيًا: اعتبارها أداة من أدوات الزجر والردع.

فالمجرم الذي يقترف الإثم ويعاقب عليه بأية عقوبة كانت ثم يحس أنه إذا كرر الإثم فسيتكرر العقاب، وقد يتكرر بصورة أشد، لعل العقاب عندئذ يكون مدعاة لعدم مقارفته للجريمة مرة أخرى.

ثالثًا: اعتبار العقوبة وسيلة من وسائل الإصلاح..

أما بالنسبة للغرض الأول -كجزاء عادل- فإنه أمر طبيعي إذا ما روعي فيه اعتبارات عدة، وتحرى المشرع والمنفذ الدقة والإنصاف والفهم السليم. وأما من ناحية الزجر والردع. فقد ثبت أن الأساليب التي اتخذت في القرن الماضي وأوائل القرن الحالي (وحتى في أيامنا هذه في بعض البلدان) لم تؤد إلا إلى عكس المطلوب منها، لأنها لم تقم وزنًا للاعتبارات الاجتماعية، والحالة النفسية والصحية بالنسبة للمسجونين، وبالتالي أصبح الغرض الثالث من العقاب -وهوا الإصلاح- غير ذي موضوع..

فكيف كان ذلك؟؟؟

فلننظر مثلًا إلى العقوبات في السجون -باستثناء عقوبة الإعدام- ولنبحث وراء هذه العقوبات ونرى أثرها فيما نحن

بصدده، ولكي نتأكد هل أدت إلى ما تنشده من غايات في مصر أم لا؟

***

1- عقوبة الأشغال الشاقة:

كان المقصود من هذه العقوبة -مؤقتة كانت أو مؤبدة- هو تكليف النزيل بعمل شاق جدًا كنوع من أنواع الإيلام، ووسيلة من وسائل صرفه عن التفكير في الجريمة مرة أخرى، لأن الأعمال الشاقة وما تتطلبه من جهد وإرهاق شديدين، كفيلة -كما يظنون- بعمل انقلاب عظيم في شخصية السجين، وكان المفروض أن هذا الانقلاب الخطير سيكون وسيلة من وسائل القضاء على الجريمة والتفكير في عدم مقارفتها مرة أخرى..

وكانت وما زالت -عقوبة الأشغال الشاقة تتمثل في ليمان طره وأبي زعبل، فلنلاحظ نزلاء هذين الليمانين. ولندرس حالتهم في تمعن وروية حتى نرى ما أنتجته هذه العقوبة من آثار بالنسبة للنزيل نفسه، وبالنسبة لإحصائية الجرائم، وبالنسبة للإنتاج الذي يقابل المجهود الضخم الذي يبذله النزلاء.

فالبنسبة للنزيل؛ كانت هذه العقوبة كما قلنا معولًا يهدم في صحته بلا هوادة، إذ أن المطلوب منه هو مقطوعية معينة يلزم بأدائها، ومن لم يؤد هذه المقطوعية عوقب أشد العقاب، إذ يرسل إلى «التأديب» -أو «الحمراء» كما يسمونه- ويشتغل في

الفرقـة المخـصوصة لأيـام معينـة يحكـم عليـه بهـا، والفرقـة المخصوصة هـذه فرقـة المقـصرين في المقطوعيـة، ويطلـب منهـا عمل مضاعف..

وما أكثر الذين يجلدون من جراء هذه المقطوعية..

ومـا أكثر أولئك الـذين اصـطنعوا العاهـات المختلفـة حتـى يريحوا أنفسهم من شرها وويلاتها.

إن هذه العقوبة تهدر إنسانية النزيل، وتغرس في نفسه ألوانًا من المقت والحسرة والرذائل التي لا حصر لها، إنها تنهكه جسميًّا وروحيًّـا. وتجعـل حياتـه ضـائعة تافهـة، وتجعلـه يكفـر بـذلك المجتمع الـذي يذيقه الويـل والهوان، فضلًا عن تعـرض النزيـل للخطر في هذا العمل عند اشتعال الفتيل، وعند تساقط الصخور دون سابق إنذار، مع ملاحظة أن نظام التعويض المـالي لا يطبق على العمل في السجن.

أمـا أثـر هـذه العقوبـة بالنسبة لإحـصائية الجرائم، فهوواضـح لـدى الجميـع –حسب تقريرات علـماء الجريمة والعقـاب وعلـماء الـنفس أيـضًا– فـالجرائم في ازديـاد، والمـذنب لا يرتـدع، ونفسيته تزداد تعقيدًا على تعقيد، وانحرافًا على انحراف.

ومع أن المسجون يبذل في الأشغال الشاقة [1] عصارة حياته، ويريق على سفح الجبل ماء شبابه وآمالـه إلا أن النتيجة المـادية

(1) يؤدي المسجون فترة معينة (ثلاث سنوات) في الجبل، وليس مدة الحبس كلها..

التي تجنيها الدولة من وراء عمله الشاق هذا في منتهى التفاهة.. إنها عقوبة سيئة الأثر بالنسبة للنزيل نفسه..

وهي عقوبة لم تغير من نظرة النزيل للمجتمع بل ازدادت هذه النظرة حقدًا وبغضًا..

وهي من الزاوية الإنتاجية البحتة شيء لا بؤبه له..

ثم هناك أمر مهم..

هل الأشغال الشاقة حيث قطع الأحجار ونقلها مما يؤهل النزيل تأهيلًا مهنيًا؟؟ هل هذا عمل يستفيد منه النزيل إذا ما ودع عالم السجن إلى عالم الحرية؟؟ أتراه سوف يفتتح محجرًا يرتزق منه؟؟؟

إن عقوبة الأشغال الشاقة هي أولى المشاكل الجديرة بالاهتمام والرعاية، وتحتاج إلى حل سريع حاسم حفظًا لإنسانية النزيل، وضمانًا لسلامة المجتمع، وحرصًا على زيادة الإنتاج المادي النافع وسننصح بما نراه في مكان آخر من هذا الكتاب.

2- ورشة النسيج:

إن من زاروا السجون أو قضوا فيها وقتًا كافيًا، وشاهدوا ورش النسيج والنظم المتبعة فيها، والعمل الذي يقوم به «ريس» النول، إن هؤلاء يدركون مدى ما يقاسيه «الريس» من آلام

ومتاعب وهو يشتغل على هذه الآلة العتيقة -أو بمعنى أصح- الأثرية.. (1)

لقد كان كثير من النزلاء يحتالون بشتى الوسائل على الفرار من هذه العقوبة، وقد يدفعهم ذلك إلى التفكير في أن يرشوا طبيب السجن كي يمنحهم «درجة طبية» تعفيهم من هذا العمل الشاق، وقد يلجأون إلى طرق أخرى أشرنا إليها من قبل..

«فريِّس» النول مطلوب منه هو الآخر «مقطوعية» مثل المحكوم عليه بالأشغال الشاقة في الجبل تمامًا، يجب أن يقوم بإنتاج عدد معين من الأمتار، وإلا فهناك التأديب حيث نقص الغذاء والغطاء والحبس الانفرادي، وأشياء أخرى كثيرًا ما تحدث [مثل: الصفعات والركلات والضرب على القفا، والضرب على الأقدام بالخيزران..إلخ].

كنت أرى بعض النزلاء وهم يلهثون على النول محاولين قدر الإمكان الانتهاء من المقطوعية المطلوبة منهم، والعرق يتقاطر على وجوههم النحيلة المكدودة، وعيونهم قد كلت من كثرة التدقيق، ثم إن أغلبهم لم يكن يجد الوقت الكافي لينتقل بعيدًا عن النول حتى يتناول غذاءه، بل يكتفي بأن يلتهمه التهامًا وبسرعة عجيبة، وهو جالس في مكان على كرسي النول حتى لا يضيع

---

(1) أدخلت آلات نسيج حديثة في سجن القناطر كتجربة في عام 1957.

الوقت، وحتى يواصل عمله خوفًا من التأديب وآلامه.. بل إن كثيرين منهم كانوا يتكاسلون عن أداء فريضة الظهر..

ولن أنسى أحد الذين أصيبوا بالجنون في «سجن ما»، وكان يقف وسط تهريج النزلاء وضجيجهم وضحكهم وهو يرقص برجليه وذراعيه رقصة تشبه إلى حد كبير الحركات التي يقوم بها «ريس» النول أثناء العمل، وكان النزلاء يطلقون على هذه الرقصة «رقصة النول»..

كما وأن تصميم الورش من وجهة النظر الصحية يدعو إلى الرثاء، ففي الشتاء باردة الجو، وفي الصيف خانقة شديدة القيظ، وبصاق النزلاء يتناثر هنا وهناك على الأرض التي ترتطم بها أقدامهم الحافية المتشققة في أغلب الأحيان، مما يجعل الإنسان في مثل هذه الحالات يفضل الجبل وما فيه من آلام ومشاق على حالة الورش وهي في صورتها الراهنة المزرية..

وفي مثل هذه الحالات ترى الحقد ينمو ويزداد ضد المجتمع، وترى الحالات المعنوية والجسدية تسوء، تمامًا مثلما يحدث بالنسبة للمشتغلين في الجبل..

وقد يقال إن تعلم السجين يؤدي إلى امتهان عمل شريف يرتزق منه المسجون بعد الإفراج عنه، وهذا لا يكون مبررًا لما يلاقيه النزيل في ورشة النسيج من آلام وآثار بعيدة المدى، شديدة الخطورة، فضلًا عن أن اختيار المسجونين في ورشة

النسيج لا ينبني على أساس سليم من الاختيار ومراعاة ميول النزيل.. فهذا نزيل من قرية نائية ومن أسرة فقيرة نشأ وعاش فلاحًا، ومع ذلك فلا بأس من تصنيعه في ورشة النسيج.. وهذا طالب أزهري أخذ بثأر أبيه.. وهذا طالب من كلية العلوم هتك عرضًا.. وهذا موظف مرتش، كل هؤلاء لا بأس من تصنيعهم في ورش النسيج.. أما ميولهم أما استعداداتهم العملية.. أما مستقبلهم المهني فهو لا شيء البتة..

أما ورشة «الترزية» فقد يظن القارئ عند سماع اسمها أنها ورشة معدة ومجهزة تجهيزًا جبارًا بحيث تنتج إنتاجًا ذا قيمة وبحيث تؤهل النزيل لكي يكون «ترزيًا» إذا ما قضى مدته وخرج إلى الحياة، والحقيقة التي رأيتها بنفسي (سجن أسيوط مثلًا) أن النزلاء لا يخيطون إلا ملابس السجن، وهذه لا تحتاج لشيء من البراعة أو الدقة، كما أنها لا تستعمل في الخارج، والحياكة ليست على ماكينات حديثة أو غير حديثة، بل حياكة يدوية بالإبرة [1].. صحيح أن العمل قد يكون فيها مريحًا، لكن ما جدواه؟ وما الفائدة الحقيقية التي يجنيها النزيل من ورائه؟؟[2]

(1) في حالات نادرة تستعمل ماكينات الحياكة.

(2) يلاحظ أن «المكوجية» في السجون تعتبر عملًا ناجحًا فعلًا.

لا مراء في أن هذه المسألة من العمل سواء في ورشة النسيج أو ورشة الترزية عبث في عبث، وضياع الوقت والمجهود، دون فائدة تذكر، واحتقار لآدمية النزيل ومستقبله ووقته مهما كانت جريمته.. إذ أننا لا يصح أن نجرم نحن أيضًا في حقه..

لهذا لم يهمل مؤتمر «جنيف» هذه الناحية المهمة حيث قرر في البند الأول من توصياته قائلًا: «يجب ألا يعتبر العمل في السجون كعقوبة إضافية، بل يجب النظر إليه باعتباره وسيلة لتيسير اندماج المسجونين في الهيئة الاجتماعية، وإعدادهم لمزاولة مهنة، وتلقينهم حب العمل، وعاداته المحمودة، ولمكافحة البطالة والفوضى بينهم».



إن العمل في السجون ما زال يفتقد التنظيم الدقيق، والإعداد الكافي، والأجور يجب أن تبحث هي الأخرى بحثًا جديًا، والعمل يجب أن ينوع وينظم بحيث يستوعب أكبر عدد من الحرف حتى يستطيع أن يفي بمطالب النزلاء وميولهم المختلفة، أو يكون -بمعنى أصح- مدرسة فنية لتزويد النزيل بالقواعد والتدريبات العملية الكافية التي تجعل منه في المستقبل صاحب مهنة شريفة يحبها ويقبل عليها في المجتمع..

فالتأهيل المهني حتى الآن -ورغم نوايا رجال السجون الصادقة وتصريحاتهم الآملة- ما زال في أضيق نطاق، وإن عدد

النزلاء الذين يشتركون في الجامعة الشعبية وفروعها قليل جدًا، والذين يؤهلون تأهيلًا مهنيًا حتى الآن عدد لا يعول عليه، ولا يحل المشكلة من أساسها..

وأصدق دليل هو الواقع، والوضع الحالي في السجون يؤكد ما نرمي إليه، وزيارة واحدة بعيدة عن الرسميات وعن أضواء الصحافة والدعاية كفيلة بتمييز الزيف من الحق..

ونحن بذلك لا نبخس رجال السجون حقهم، ولا ننكر الخطوات المباركة التي غيرت كثيرًا من وضع السجون، وأدخلت فيها كثيرًا من الإصلاح، ولكننا ننشد الوضع الذي يجب أن يكون، ونهدف إلى الغاية الإنسانية النبيلة وهي علاج المجرم وإعادة إدماجه في المجتمع كمواطن صالح له عمل يعصمه من الزلل والضلال مرة أخرى.

فلا يصح أبدًا أن يقف الإيراد الجدد في طابور طويل قد يربو على الخمسين سجينًا، أمام مأمور السجن أو وكيله من أجل تصنيعهم في دقائق معدودة، إذ يقف المسجون برهة أمام المأمور -أو من ينوب عنه- فيسأله عن اسمه، وينظر إلى شكله ويقول:

- امش.. أنت في النسيج..

- وأنت.. ترزية..

- وأنت.. مكوجية.. و.. إلخ

هذا يحدث في سجوننا في الوقت الذي تقوم فيه بعض الدول الأخرى بتأليف لجنة ذات ثقافة واسعة، واختصاص دقيق لفحص المسجون جسمانيًا ونفسيًا، وتبين ميوله وأهوائه، ووضعه تحت الاختبار مدة لا تقل عن ثلاثين يومًا يحظى أثناءها بمقابلة كل أخصائي على حدة، ثم تكتب عنه التقريرات المفصلة..

وما يحدث لسجيننا عند المأمور أو من ينوب عنه، يحدث أيضًا عند الطبيب الذي يفحصه فحصًا عابرًا لا يكفي أبدًا لوضع تقرير دقيق عن حالته الصحية التي تتناسب مع العمل الذي سوف يعمل فيه.

3- عقوبة الجلد:

الجلد هو إحدى العقوبات البدنية التي يتلقاها النزيل داخل السجن إذا ما أتى بمخالفات معينة نصت عليها اللائحة، وعقوبة الجلد لها شروطها واعتباراتها الخاصة، لكن الذي كنت أعرفه عن العهود السابقة أن هذه العقوبة كانت وسيلة التشفي والانتقام، وشعارًا للإرهاب والقسوة، فقد كان المذنب يجلد أحيانًا أكثر من العدد القانوني المحكوم عليه به، وأحيانًا أخرى كانت طريقة الجلد نفسها تؤدى بصورة قاسية مخالفة للائحة، وقد يحدث الاثنان معًا: زيادة في «الكم»، وشدة في «الكيف».. وربما أضيف إلى ذلك بعض اللكمات وما شابهها..

هذا ما كان يحدث فعلًا، وكان على السجين أن يتقبل ذلك صاغرًا فإذا تظلم فلن يسمع لظلامته أحد، وإذا استشهد بأحد جبن من هناك على أداء الشهادة ضد الرؤساء، لأن «الجِلدة» ما زالت موجودة «والأيام بيننا» كما يقول المثل، وكل سجين يخاف أن تحمل له الأيام المقبلة شرًا في ثناياها، لهذا يحاول أن ينأى بنفسه عن مواطن الخطر، ولا داعي لأداء الشهادة..

ومثل هذه الظروف والتصرفات لها أثرها البعيد في أخلاق النزلاء فتطبعهم بطابع الجبن والكذب والرياء، وتقلل من كرامتهم وإنسانيتهم، وهم مساكين لأنهم مرغمون على ذلك إرغامًا.

وعلى أية حال فإن القسوة المشار إليها في الغالب لا تحدث إلا في المرات التي يكون بها صدام شخصي بين النزيل وبعض رؤسائه، لكن أصول العدل، ومراعاة الضمائر، والتقديس لحق القانون، كل ذلك يقتضي منا أن نكون منصفين. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة:8]. «صدق الله العظيم»

وللنزلاء أغاني يرددونها عن أهوال العروسة، فيقول أحدهم عن نفسه:

وإن قالوا ساب العروسة وعندها الشربات
قولوا له في السجن يا ما تتنصب عروسات [1]
ليها إيدين من خشب وكمان لها فتحات
عاهرة ما ترحم ولا تشفق على الجراحات
وإن قالوا مأذنكومين، قولوا أبوشنبات [2]

ولقد رأى البعض إلغاء عقوبة الجلد نهائيًا..

غير أن هذا النوع من الإيلام الجسدي إذا ما قورن بآلام الجبل ومشاقه أصبح أمره هينًا، وخاصة إذا ما روعي في الجلد الرفق والتوصيات الطبية القانونية، وأداء المنفذ بروح الإنصاف والعدل.

وقد أحسنت اللائحة الأخيرة [3] صنعًا إذ ضيقت نطاق عقوبة الجلد وجعلتها قاصرة على التمرد الجماعي والعدوان على موظفي السجن.. والعقوبات البدنية المعقولة مقررة من الوجهة الدينية والقانونية، ولا يمانع فيها كثيرون من رجال التربية، كما أنها نوع من القصاص الذي أراه مناسبًا للجرم، فهذا المسجون الذي يعتدي على سجان بالضرب، من الأوفق أن يضرب هو

(1) الآلة الخشبية المعدة للجلد.
(2) أبوشنبات سجان مشهورة بالقسوة.
(3) لائحة السجون عام 1956.



الآخر، وخاصة أن الجلد إذا ما روعي فيه الدقة والإنصاف والقانون كما قلنا، فلن يكون فيه كثير من التحقير لشخصية السجين أو إهدار آدميته، بل سيتقدم في وقار إلى «العروسة»، ثم يخلع ملابسة في هدوء دون زجر أو ضرب، ثم يربط ويجلد العدد المقرر، ثم يفك من العروسة، ويترك لحال سبيله دون شماتة فيه أو سخرية منه..

قد تكون هذه الصورة مرضية نوعًا ما، وقد يكون تأثيرها السيئ أقل بكثير من التأثير الذي كانت تتركه أيام «وتنجهام» باشا الذي كان يتسلى بالجلد لأهون الأسباب وكذلك الأيام التالية لوتنجهام أيضًا..

4- عقوبة الحبس الانفرادي:

كان الحبس الانفرادي فيما مضى لعنة تحل بالسجين، وتحطم آدميته، وتدمر كيانه تدميرًا، وقد كان يحدث في بعض الأحيان أن يقضي السجين في الحبس الانفرادي سنوات، وحيث الظلام الدامس بالليل، وحيث الوحدة القاتلة، والملل الفظيع ليل نهار، ولمثل هذه الوحدة القاسية أكبر الأثر على القوى العقلية والنفسية والبدنية كما سنرى..

ولقد تناول الباحثون هذه المشكلة -مشكلة الحبس الانفرادي- بالبحث والتمحيص الدقيق، وقرروا تضييق نطاقها لدرجة كبيرة، غير أني لاحظت أن السجين الذي يكون (تحت

محضر) يترك ما يقرب من شهر في الحبس الانفرادي في انتظار الجزاء الذي سيرد من المصلحة وقد يكون هذا الجزاء يومين أو خمسة أيام - مع أن النزيل يكون قد قضى شهرًا بأكمله في التأديب (الحبس الانفرادي).

وعلى العموم فالحبس الانفرادي قد يكون فيه شيء غير قليل من الفائدة بالنسبة لذوي الثقافات والذين يميلون للاطلاع والدراسة والإنتاج الفكري، ولقد أفاد منه نهرووغاندي وغيرهما إفادة كبيرة، كما أفاد منه في الماضي البعيد الإمام أحمد تقي الدين ابن تيمية العالم الكبير والمصلح العظيم.. لكن ليس معنى ذلك أن يقضوا كل وقتهم أو أغلبه في هذا الصمت المطبق، والوحدة التي تبعث على السأم والضيق..

والمعروف أن الحبس الانفرادي لما يكتنفه من هدوء وصمت عميق يدفع السجين إلى أفكار شتى، فيفكر في بنيه.. في زوجه.. في أسرته على وجه العموم.. ويفكر في مستقبله الضائع ومستقبلهم ويفكر في فرص الحياة التي طارت من يده، ويفكر في أصدقائه ومعارفه الذين لم يكتب عليهم السجن، ومضوا في موكب الحياة سعداء آمنين ناجحين.. ثم يفكر في الآلام التي يلاقيها في السجن، والمحن التي تمر به واحدة إثر أخرى.. ثم ينظر إلى ثيابه ذي الطابع المعين.. وينظر إلى جردل البول في ناحية، وجردل ماء الشرب في ناحية أخرى، ويمعن النظر في البرش الذي يرتمي عليه.. وفي الأكل المصروف.. وفي حرمانه

من حريته.. من نشاطه الجنسي.. من.. من... من.. الخ، فتدور رأسه، ويشعر بالكبت الشديد، ويحس بالمقت والكراهية نحوالناس والحياة..

لهذا يصاب كثير ممن يعيشون لمدد طويلة في الحبس الانفرادي بنوبات عصبية، وعقد نفسية شديدة يكون لها الأثر البالغ في حياة المسجون مستقبلًا، ولقد صور أحد النزلاء زاوية من هذه المشكلة بقوله:

أنا ليلى كله ضلام ومفيش حتى شعاع
ونومي على البرش خلى جتتي أوجاع
«ويمك» كما الغاب لكن في السجون نعناع [1]
والنمل يزحف علينا م الخروم أليات
اسأل عليه «الجبيصي» واسأل أبو شجاع

وعلى العموم فإدخال النور إلى حجرات النزلاء قد خفف لدرجة ما آثار هذه المشكلة، لكن الوسيلة الوحيدة للتغلب على الوحدة والتفكير الشاذ في الحبس الانفرادي هي القراءة، لكن لو علمنا أن أغلب النزلاء ممن لا يلمون بالقراءة والكتابة، أو ممن لا يعرفون غير القراءات الطفيفة الخفيفة، ولو علمنا أيضًا أن الحبس الانفرادي قد تصحبه عقوبة الحرمان من بعض الميزات مثل الكانتين.. وقراءة الصحف.. والرياضة لأدركنا أنه ما زال

(1) اليمك: طبيخ السجن.

مشكلة، وخاصة للذين هم (تحت محضر) حيث يقضون حوالي الشهر في تلك الوحدة القاسية دون أن يقرءوا أو يعملوا شيئًا..

وهناك بعض النزلاء الذين يفضلون أن يعيشوا في زنزانة انفرادي Individual cell بمحض رغبتهم للاطلاع أو الفرار من مشاكل المجموع أو لحب العزلة..

5- عقوبات غير معترف بها:

أجل هناك عقوبات قد تكون أقسى من الجلد نفسه، وقد يكون تأثيرها في النفس أبعد مدى من شغل الجبل وشغل ورشة النسيج اليدوي، وهذه العقوبات لم تبحها اللائحة، وإنما هي شبه عرف أو أمر مقرر للحط من إنسانية النزيل، والنيل منها، فمثلًا هناك عقوبة الصفع والضرب على القفا والركل والضرب بالقايش والخيزران.. و.. و.. الخ.

إن أمثال هذه العقوبات تحدث ببساطة وفي معظم الأوقات مع أنها ليس لها ما يبررها من الوجهة القانونية، وكثيرًا ما يثور النزيل ويحتج على هذه المعاملة، خاصة إذا كان ممن هم على علم باللوائح والنظم، لكن احتجاجه يذهب أدراج الرياح، فلن يجد في الغالب من ينصف مما يجعل النزيل في بعض المرات يضرب عن الطعام، ويطلب النيابة للتحقيق، وقد يمتد إضرابه إلى عشرة أيام أو أكثر، لكن في العادة إذا ما جاءت النيابة فإن آثار الصفعات والركلات تكون قد انتهت لهذا يلجأ السجين إلى إحداث جروح أو إصابات في جسمه أو في عينيه أو تشريط

جبهته وبطنه بشفرة حلاقة حتى يوهم المحققين أن الذي اعتدى عليه من الإداريين قد تعمد الإضرار البالغ به..

إن عقوبة الضرب -تلك العقوبة العرفية- يجب أن يوضع لها حد، فهي لا تتفق مع المنطق، ولا تتمشى مع القوانين الإصلاحية ولا تبعث في نفس السجين الاحترام والثقة بالنسبة لرئيسه، ولكنها تأتي بنتائج عكسية ذات أضرار بالغة..

***

ومن هذه العقوبات أيضًا -أعني العقوبات التي لا تقرها اللائحة- السب والشتم بأفظع الألفاظ، وكثيرًا ما يقذف السجان بهذه الشتائم في ثورة، وغضب وقد تتناول الأب والأم والدين وما إلى ذلك..

ولا ننكر أن بعض السجانين يربأون بأنفسهم عن هذا السلوك الذي يتنافى مع العفة والخلق الكريم، والذي يأباه الدين والذوق السليم، فإذا كان السجن مدرسة إصلاح كما يقولون فلا يصح أن يتلقى النزيل في هذه المدرسة تلك العبارات النابية و«الاصطلاحات» الخارجة، التي يحاول بدوره أن يطبقها على زملائه، ومثل النزيل في هذه الحالة كمثل التلميذ الصغير الذي يقلد أستاذه فيما يصدر منه من تصرفات وحركات وكلمات وطرق في التعبير والأداء.. وليلة واحدة يبيتها الزائر داخل عنبر

المسجونين يستطيع أن يسمع «قاموسًا» كاملًا من هذه الألفاظ النابية مثل:

- «ربنا يعدلها يا أولاد.!!...»

- «بطل مواويل يا ابن.!!....»

- «عاوزين ننام يا ابن.!!....»و.. و...الخ.

وألفاظ أخرى كثيرة لا يستطيع الإنسان أن يدونها.

وتقليد النزلاء السجانين لا يقف عند الشتائم، فلقد كان أحد المسجونين «النوبتجية» مصنعًا في التأديب في ليمان أبي زعبل، وكان هذا النزيل يعاون الجاويش ويحمل عصا غليظة يضرب بها النزلاء الموجودين في التأديب نيابة عن جاويش التأديب، بل كان أقسى منه وأغلظ قلبًا.. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك..

هذا، وليس معنى ذلك أن كل نقيصة في النزيل يكتسبها من السجان، ولكن أردنا أن نبين أثر السلوك القاسي الشاذ الذي يسلكه السجان فينطبع في كثير من الأحيان على تصرفات السجين.

***

ومن أقسى الأشياء على النزيل هو إهدار فرديته، ومعاملته معاملة تحمل في طياتها التجاهل والزراية والاحتقار، مثال ذلك أن السجان كثيرًا ما ينادي قائلًا:

- «تعال هنا يا مسجون».

- «امش هنا يا ولد..».

- «البني آدم اللي هناك ييجي هنا..إلخ هذه العبارات التي تقال حتى لبعض الأفراد الذين يعرف الجاويش السجان أسماءهم، ولا شك أن مناداة السجين باسمه تكون عذبة على سمعه، وفيها إشعار بالرابطة والاهتمام والتودد، ولقد صور تشارلز ديكنز هذه الظاهرة في كتابه «قصة مدينتين» حيث كان النزيل ينادى عليه بالرقم الذي يحمله فقط، لهذا نرى سجن «فتزفيل» يضع على باب حجرة السجين بطاقة ليس بها رقم على الإطلاق، ولا ينادى عليه إلا باسمه فقط.

إن النزلاء هم أحوج الناس إلى لون من التقدير الشخصي والرعاية الذاتية التي تحمل في طياتها شيئًا من ورد الآدمية والاعتبار لهم..

وبعض السجانين يستعملون نداءات أخرى مثل:

- «تعال هنا يا حرامي..»

- «ادخل زنزانتك يا واد يا تسول..»

- «امش من قدامي يا نصاب..»

- «اسمع الكلام يا مجرم..»

هذه النداءات التي تحمل ألفاظها اسم جريمة النزيل تعطي له صورة قاتمة لا تفارقه.. صورة الجريمة التي لم يغفرها له المجتمع، وينظر إليها نظرة الحقد واللوم والتأنيب، والدليل على ذلك أن السجان ما زال يرددها على سمعه، ويلقيها إليه في ثوب السب والإهانة..

ولهذا السبب يحاول بعض النزلاء أن يهربوا من جريمتهم وينتحلوا بدلًا منها جريمة أخرى أقل عارًا وفضيحة..

قلت للنزيل «س».. ما هي تهمتك؟؟».

فقال: سرقت محفظة..

وتبين لي فيما بعد بالتحري أنه قواد وليس لصًا، ويبدو أنه فضل أن يكون لصًا على أن يكون من تجار الرقيق الأبيض، لظنه أن ذلك أخف وطأة من الأخرى، ويظهر أن المجتمع المصري - كمجتمع متدين- ينظر إلى جرائم الزنا والبغاء نظرة اشمئزاز ونفور، ولهذا حاول «س» أن ينتحل جريمة أخرى..

ومن المناظر المؤذية التي أظنها من صميم العقوبات المقررة هي الاستحمام، وتتم عملية الاستحمام كالآتي: يذهب طابور طويل من النزلاء إلى الحمام، ثم يقف جاويش «المغسل» على باب الحمام، ويأخذ من كل داخل بدلته ويتركه عاريًا كما ولدته أمه -إلا إذا كان المسجون من ذوي اليسار فيشتري لنفسه

ملابس داخلية ويوفر على نفسه هذا المنظر البشع - وبعد ذلك يحشر المسجونون حشرًا في الحمام وهم عراة تمامًا تحت الماء الذي يتدفق فوق رءوسهم.. فهل وقوف السجين على هذه الصورة شيء مقبول؟؟

وهل ازدحامهم واغتسالهم بهذا الشكل يتفق مع الإنسانية التي نرجوها لهم، والإصلاح الذي ينشده أولو الأمر؟؟

وهل لو صرفت لهم مصلحة السجون سترات صغيرة لا تتكلف سوى مليمات للفرد يسترون بها عوراتهم، ويتجنبون تلك اللعنة [1] التي تنصب على الناظر والمنظور إلى عورته، هل لو تجنبت ذلك يضيرها شيء؟؟

إننا نريد للنزيل أن يتسم بشيء من العفة والحياء..

ونريد له إشعارًا بآدميته وإنسانيته..

ونريد له سترًا وحفظًا.

فهل يحدث هذا إزاء عملية الاستحمام..

وأعجب من ذلك أنني رأيت سجانًا يصر على أن يخلع أحد النزلاء سترته التي يستحم بها حتى لا يتميز بها عن غيره، فقال له النزيل:

- «إن الاستحمام على هذه الصورة عيب».

---

(1) هناك حديث نبوي شريف يقول: لعن الله الناظر والمنظور.

فرد السجان مفلسفًا الموضوع بطريقة عجيبة:

- «ألست رجلًا؟؟»

- «طبعًا.. رجل».

- «خلاص.. ما يهمكش.. استحم عريان زيُّهم..».

إن مثل هذا السجان يحتاج إلى كثير من التوجيه والتعليم حتى يفهم الوسيلة الصالحة والسياسة الناجحة التي يجب أن يعامل بها المسجون، وقد أحسنت مصلحة السجون صنعًا في بدئها للدراسات الاجتماعية وغير الاجتماعية بالنسبة لكل من له دور في الإشراف على السجون[1] ..

وما أكثر الأمور العادية التي تمر مرورًا سهلًا، ويخيل للإنسان الذي عاش في السجن لمدة طويلة أنها عادية لا تثير التفاتًا ولا انتباهًا مع أنها تحمل من عناصر الفساد وسوء الأثر الشيء الكثير..

فطريقة تفتيش النزيل فيها كثير من التحدي واستثارة المشاعر والاضطهاد، وطريقة استلام الطعام وتناوله لا تتفق مع أبسط قواعد الإنسانية، وقس على الحمام والتفتيش واستلام الطعام غيرها من الأشياء. إن النزيل إذا ما امتهنت كرامته، واحتقرت آدميته، لجأ إلى وسائل شاذة لإثبات وجوده، وتحقيق

---

(1) معهد التأهيل.

ذاتيه، لأنه لا يستطيع أن يعيش كما مهملًا، وإنسانًا محتقرًا، فيريد أن يلفت النظر إليه بأية طريقة وبأي ثمن. فالمسجون ع. المجنون الذي ذكرناه آنفًا، يلجأ إلى حلاقة شعر رأسه وحواجبه وشاربه ولحيته بالموس، فإذا ما نظرت إليه وهو في هذه الحالة خيل إليك أنك أمام عفريت لا إنسان، وكلما مر المسجون ع. وهو على هذه الصورة أمام مسجون كان مادة للضحك وللتعليق والسخرية، حتى أن مدير السجن لما رآه هو الآخر لم يتمالك نفسه من الضحك..

وبهذه الطريقة عرفه الجميع، وكل واحد كان يجاذبه أطراف الحديث، وأرضت هذه الوسيلة نفسيته، وسدت جزءًا من مركب النقص الذي يعتوره، فأخذ يكرر هذه العملية من آن لآخر..

وقد يلجأ بعضهم إلى تصنع الجنون واصطناع النوبات العصبية والعاهات كما سبق ووضحنا ذلك..

لهذا يقول وزير الحربية والبحرية في إحدى كلماته [1]:

«.. إن السجون يجب ألا تكون أمكنة لبث الرعب، أو لكبت المشاعر الإنسانية، أو لامتهان الكرامة، بل يجب أن تتحول إلى دور لحل العقد النفسية التي تدفع المنحرف إلى انحرافه، ومدارس لإنارة العقول حتى تسلك في الحياة طريقًا قويمًا،

(1) انظر كتاب: «السجون في عهد الثورة».

ومصانع للتدريب على مهنة تقيم الأود، وتساعد النزيل على حياة حرة كريمة بعد انتهاء عقوبته..»..

لكن هل يطبق هذا الكلام؟؟

ومن هنا جاءت أهمية «العلاج الفردي»، وخاصة بعد أن ثبت فشل طريقة «العلاج الجماعي»، لأن الأولى تشعر النزيل بمدى أهميته، وتقدر ظروفه الخاصة..

ومن هنا أيضًا اعتبر السجن -في ظل النظريات الإصلاحية الحديثة- مكانًا للعلاج والإصلاح، بعد أن كان مكانًا للانتقام والعقاب، والإرهاق بشطريه الجسدي والروحي.

أثر السجن في ذوي الجرائم السياسية:

هناك فئات من المسجونين لهم طابع معين، وجرائم خاصة، هؤلاء هم الذين يرتكبون جرائم ضد أمن الدولة، باعتناقهم آراء معينة ودعوتهم الناس إليها بطريقة أو بأخرى، والعمل على تطبيقها بشتى الوسائل، وقد يلجأون إلى وسائل لا يقرها القانون، وتعتبرها الدولة مما يهدد أمنها، ويعكر صفوها، ويؤدي إلى الاضطراب والفوضى واختلال النظام الداخلي..

وعقوبة السجن يختلف تأثيرها في نفوس أصحاب هذه الفئة، اختلافًا بينًا، ويؤدي بهم إلى وجهات نظر غير متفقة..

إن تعرضهم للعقاب، وحرمانهم من حريتهم، وضياع كثير من الفرص عليهم، وعرض موضوعاتهم وقضاياهم للبحث

والجدل والتمحيص، يتيح لهم الفرصة كي ينظروا نظرة أعمق إلى ما يؤمنون به، ويبدأون التفكير من جديد في حقيقته وأهدافه وبواعثه وهم ينقسمون طبقًا لتأثير السجن إلى أنواع ثلاثة:

النوع الأول:

وهم فئة المتحللين من مبادئهم، والكافرين بها بعد أن ذاقوا ما ذاقوا. وتعرضوا لما تعرضوا له من تضحيات جسيمة، وبعد أن انقلبت المقاييس الفكرية عندهم، فحسبوا أنهم كانوا على باطل، وأنهم ظالمون متجنون لم يحسنوا التفكير، ولم يوفقوا في اختيار الطريق الأسلم الذي يفيدهم ويفيد مواطنيهم، وهؤلاء يشعرون بلذعات الندم، ويحاولون الخروج من هذا المأزق بصورة ما، فلقد كان السجن بالنسبة لهؤلاء صفعة أيقظتهم من أحلامهم، وردتهم إلى عالم الواقع المرير، وحينما صحوا بدت لهم أمور جديدة وحقائق أخرى غير التي ألفوها من قبل، وقد يكون ضمن هذا الصنف من الناس بعض الذين ينوءون بالتضحيات، فيهربون من الميدان ويطلقون المبادئ التي آمنوا بها، لا لفسادها ولكن من أجل ما جرته عليهم من ويلات وآلام ومآسٍ، لكنهم يفلسفون خورهم، ويلتمسون له الأسباب والمعاذير. وهؤلاء على عكس الذين تبين لهم أنهم كانوا خاطئين فعلًا، وأن ما ساروا فيه من مبادئ كان خداعًا وضلالًا، لكن كلا الاثنين ينضوي تحت عنوان واحد.. أعني فئة المتحللين..

النوع الثاني:

وهم فئة المعتدلين الذين لفتوا النظر إلى مبادئهم في ضوء ما جد من أحداث، واختلف عليهم من أمور، بعد أن ينحوا عواطفهم جانبًا ويحكموا العقل والروية والإنصاف، وهؤلاء يتبين لهم بعد الدرس والفحص أن ما آمنوا به قد شابه بعض الخطأ، واختلط به نوع من الإفراط والمغالاة، وهذه الفئة متى ثبت لهم الخطأ الذي ارتكبوه، وعانوا منه كما عانى غيرهم، ينفرون منه بشدة، ويعترفون به في شجاعة وصراحة. وهذا الصنف يقيم اعتبارًا لوجهات نظر الآخرين والخصوم، فلا يعميه تعصب، ولا يلفته هوى عن إقرار الحق، والاعتراف بالباطل..

ولا شك أن تقديرهم لوجهات نظر الغير، واعتصامهم بالحيدة والإنصاف في تحليلهم لأعمالهم، واعترافهم بأخطائهم أكسبهم تلك الصفة التي أشرنا إليها من قبل وهي صفة المعتدلين..

النوع الثالث:

وهم فئة المتعصبين تعصبًا أعمى لآرائهم وأعمالهم، سواء الخاطئ منها والصحيح، وهؤلاء يركبون رءوسهم، ويصرون على معتقداتهم، ويقفون إزاءها جامدين دون أن يتناولوها بالبحث والتمحيص، بل يبحثون عما يؤيدوا به جهات نظرهم،

ويلتمسون البراهين العليلة، والأدلة الشاردة من هنا وهناك، كي يفلسفوا تعصبهم وجمودهم.. وهم في مثل هذه الحالة، قد يدفعهم الكبرياء، أو يسوقهم الجهل، أو يعميهم الحقد عن الوصول إلى السبيل القويم.. فينظرون إلى استماتتهم واستمساكهم الشديد بما يؤمنون به على أنه ضرب من البطولة والبسالة ويعتبرون تضحياتهم وإصرارهم نوعًا من الاستشهاد في سبيل الغاية والمبدأ.



ولا شك أن وجود هذه الأنواع الثلاثة راجع إلى اختلاف طبيعة تكوين كل منهم، وتباين قدر العلم لديهم، واختلاف نوع البيئة ومستوى المعيشة وقدرات التفكير، وراجع إلى مدى تحمل كل منهم لآلام السجن وما فيه من تضحيات وتعقيدات ونظم.. وراجع أيضًا إلى نظرة المجتمع والهيئة الحاكمة إليهم.

ولقد لاحظت أثناء دراساتي لهذا الصنف من المسجونين أن عددًا منهم يجعل الاعتبار الأول لمبدئه، ويجعله فوق الوطن، وفوق شخصه، وفوق كل اعتبار آخر، ويفضل أن يضحي بوطنه من أجل مبدئه، فإذا ما جادلته وحاورته قال: «إن استمساكي بهذا المبدأ وجعله مثلي الأعلى هو لإيماني بجدواه، واعتقادي اعتقادًا جازمًا بأن فيه الخير لوطني وللناس جميعًا..».

فإذا قلت له:

- «إن وجهات النظر قد تختلف، ومسألة الحق والباطل مسألة نسبية، فما تراه أنت حقًا قد أراه أنا على العكس من ذلك، وما تراه نافعًا للوطن قد أرىٰ أنا فيه الخطر الجسيم، والضرر المحدق.. أليس كذلك؟؟؟»

- «كلام سليم. لكن لي وجهة نظري التي أؤمن بها..».

- «إذن فلتكن هادئًا رفيقًا، فلعل خطأك يبدو لك يومًا ما..».

- « المبادئ لا تعرف الموت والسلحفائية..».

- «لكنها تعرف تقدير الظروف، ومراعاة شتى الاعتبارات».

- «أجل..».

ثم ينصرف عنك حانقًا..

إن معالجة ذوي العقائد والمبادئ الخطرة لهي مشكلة صعبة تحتاج إلى كثير من الدقة والفهم، فقد تستطيع أن تصرفهم عن آرائهم بالضغط والزجر، لكن ستمتلئ نفوسهم بأشياء أخرى.. أعني الحقد. والبغض وانتهاز الفرص.. التفكير في الانتقام والثأر.. الكراهية للمجتمع والدولة وما إلى ذلك من شتى ألوان الانفعالات الخطيرة..

أثر العقاب في معتادي الإجرام:

إن معتادي الإجرام فئة من المجرمين الخطرين الذين اتخذوا من مخالفة القانون عادة، وجعلوا من الجريمة صنعة لهم، فهذا

يسرق ثم يسجن عشر مرات أو أكثر، وذلك يمتهن النصب والتحايل والرشوة ويحكم عليه في قضايا كثيرة، وهذا يقتل بالأجر فيقضي على إنسان مسكين لقاء دراهم معدودات.

ويعتبر «أرباب السوابق» فرعًا من معتادي الإجرام، والصلة بين الاثنين وثيقة، فليس بينهما سوى خيط رفيع..

من دراسة نفسية المجرمين المعتادى الإجرام والعائدين [1]، لوحظ أنهم ينظرون إلى القوانين التي تنظم شئون المجتمع نظرة احتقار ولا مبالاة، فمن السهل عليهم أن يسطوا ويسرقوا ويجرموا مرارًا وتكرارًا متى أتيحت لهم الفرصة، ولوحظ أيضًا أنهم يتميزون بقدر كبير من حب الذات والأثرة أو الأنانية، ولا شك أن سطوهم على حقوق الغير، واختلاسهم لما ليس لهم، وارتكابهم جرائم متكررة مما يؤيد هذه الملاحظة.. ولهذا فالمجرم المعتاد الإجرام كسول متراخ لا يريد أن يعمل، ويلجأ إلى اللقمة التي في فم غيره فينتزعها في قسوة وتبجح، ويضن على نفسه بالعمل والعرق والكدح الشريف الذي قد ينقذه مما هو فيه من وضع مُزرٍ محتقر..

والنزعة الدينية عند معتادي الإجرام ضعيفة واهية، فالواحد منهم يحب المتعة الدنيوية، واللذة السريعة الزائلة، ويجري وراء

---

(1) أرباب السوابق.

المتاع والمال ومختلف الشهوات البطنية والحسية، ويعرّض نفسه ومستقبله ومستقبل بنيه للضياع من جراء ذلك.

وتبعًا لذلك ستكون حالته الخلقية في عمومها أدعى للسوء، وأقرب للانحراف والزلل والتمرد..

فلا نعجب إذن من هؤلاء المجرمين إذا ما اعتنقوا القيم الخاطئة، ولم يروا في سلوكهم ما يشين أو يدعوإلى الخزي والعار، بل بلغت الجرأة بأحدهم لأن يقول عن صناعته عند استخراج بطاقته الشخصية أنه «نشال». ولا عجب إذن إذا كان الشذوذ الجنسي وباءً متمكنًا في نفوسهم لكثرة ما عاشوا في السجن وخالطوا بعضهم في ظروف صعبة ليس من السهل النجاة من براثنها وأضرارها..



وعلماء النفس الذين بحثوا موضوع المعتادين على الإجرام قد قرروا واثقين في صحة ما يرونه أن الاعتياد على الجريمة مرجعه قوة العادة ونفوذ سلطانها في سلوك الإنسان.

«.. والعادة -كما يرى علماء النفس- طبيعة ثانية، ويقولون إن الطبيعة الأولى هي الغريزة التي فطر الإنسان عليها، أو هي سلوكه الذي ورثه عن البشرية.. هذه هي الفطرة أو الطبيعة الأولى وكل ما يلحق بها في حياة الإنسان من حسن أو قبيح إن

هي إلا عادات، والعادات لشدة لزومها والتصاقها بمن اعتادها سميت «بالطبيعة الثانية»..

والعادات ميول نفسية قد اكتسبت بالخبرة والمران، وهي تسوق الإنسان إلى تكرار فعل ما جسمانيًّا كان أو عقليًا بطريقة معينة كلما تهيأت الظروف التي تناسب وهذا الفعل.. وهذه الميول الثابتة هي التي تحدوبالإنسان إلى معاودة كل ما هو مألوف لديه حتى إنه ليفضله على ما سواه من الأعمال الجديدة أو الغريبة عنه عادة..

وتكتسب العادات من مبدأ سن الإدراك عند الإنسان، فإذا شب عليها أصبحت لازمة له بحيث لا يستطيع الإقلاع عنها»[1]. ويرى «لمبروزو» أن معتادي الإجرام لا يألفون اقتراف الجريمة فحسب، بل إن لكل منهم طريقة خاصة، ونمط معين في مزاولته لعمله، وبعضهم لا يزور إلا أماكن معينة، ولا يستولي إلا على نوع خاص.. فهذا أخصائي في سرقة البنوك، وهذا محتال على كبار التجار، ورجال الأعمال، وآخر لا يحلوله إلا سرقة الأسلاك أو كرات البلياردو، أو الجواهر الثمينة أو الحلي الذهبية والساعات وأقلام الحبر.. و.. و.. الخ.

والغريب أن السجن رغم قسوته عليهم، ورغم جوه الخانق الكئيب ونظمه الرادعة، لم يترك أثرًا يذكر في نفوسهم: فهم

---

(1) كفاح الجريمة، تأليف محمد شاعر..

يعودون إليه كما يقول الدكتور «فرفك» البلجيكي: ويدخلون في المعيشة التأديبية ويستأنفون حياتهم التي عرفوها في حبسهم السابق بدون أي انفعال، والسجن بالنسبة لعدد عظيم منهم ما هو إلا دور راحة وهدوء ونظام، يدل على ظروفه السعيدة ما تثبته حالتهم الصحية، ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا أن التهديد بالسجن يبقى بدون أثر منعى على هؤلاء العائدين، وإنها لحقيقة يدركها كل من اشتغل بالمسائل التأديبية..».

أجل، لقد فشلت القسوة والإرهاب مع هذه المخلوقات الآدمية واعترف بذلك كبار رجال علم النفس والاجتماع والقانون. ولم يجد «جوينسون» الوزير البريطاني بدًا من التصريح بذلك وهو في غاية الأسف والحزن على هؤلاء التعساء، وعلى المجتمع الذي يصيبه الكثير من تصرفاتهم الشاذة، وجرائمهم المتكررة.

ومن هنا كانت المشكلة في مسيس الحاجة إلى مزيد من البحث والتمحيص والعلاج.. إن هؤلاء مرضى بأمراض مستعصية تشابه إلى حد كبير الأورام الخبيثة التي تصيب جسد الإنسان، فهل موقفنا إزاء هذا المرض الاجتماعي يجب أن يتفق مع موقف الأطباء البشريين من السرطان؟!

هذا ما سنراه فيما بعد..



الفصلُ الثَّالث

الفُنون فِي السِّجن

مقدمة



من الأمور المهمة التي يعتني بها الدارسون للمجتمعات الإنسانية: الفنون.

والفنون كما هو شائع تعطي فكرة عن روح العصر الذي تظهر فيه، وترسم صورة صادقة للبيئة والمكان ومختلف الأوضاع السائدة، كما أنها تكشف اللثام عن غموض النفس البشرية وغرائزها ودوافعها والمؤثرات التي تؤثر فيها.

ونظرًا لأنها تنطق بلغة المشاعر، وتترجم عن الوجدان وشتى الانفعالات النفسية والذاتية، فإن لها قيمتها التي لا تتجاهل وفائدتها الكبيرة، فضلًا عن كونها لونًا من ألوان التثقيف وأداة للترفيه، ونوعًا من أنواع التأثير في النفوس على اختلاف طبائعها..

ولقد استشهدنا ببعض الإنتاجات الفنية فيما سبق، فوجدناها دليلًا صادقًا على ما ارتأيناه من قيم تسود مجتمع السجون، وتؤثر فيه تأثيرًا قويًا..

الأدب في السجون:

ونحن نقرر أنه لم يهتم أحد من الباحثين حتى الآن، بوضع دراسة عملية دقيقة لفنون السجون..

والأدب باعتباره فرعًا من شجرة الفن، وذا دلائل مهمة، له القدح المعلي، والنصيب الأوفر فيما نحن بصدده، لهذا فسنتناول بعض السمات التي يتصف بها أدب السجون، وسوف نتعرض لبعض أغراضه المختلفة التي تنبع من هذا الجو الخاص وتتولد فيه.

(1) أغاني الحنين والألم:

إن السجين في هذا المجتمع المغلق الضيق، يشعر بالحنين الجارف للحرية التي فقدها، ويحس بالشوق الصاخب القوي لأيامها الجميلة، ويهفو قلبه إلى مراتع صباه، وأماكن هواه، ويحن إلى الأهل والأحباب والدنيا الواسعة الرحيبة التي تضج بالحياة والحب والأمل.

فهذا نزيل في العيد يشعر بالغربة والألم في السجن، ويذكر كيف كان يقضي العيد في الخارج، ثم يقول:

يا عيد خبِّرْ عن صحاب عاقني	عنهم تربص هذه القضبان
خبر عن الأهل الكرام وعهدهم	وعن الديار الذاكرات حناني
خبر عن الدار التي همنا بها	يوما، وشمنا الحب في الأركان

وفي عيد الأم يجلس أحد النزلاء وحده، ويتذكر ماضيه المليء بشتى ألوان الجمال والعواطف، المليء بحلاوة الطفولة وسذاجتها وانطلاقها ثم يهتف في حزن وألم [1]:

(1) مجلة الرسالة الجديدة (مايو سنة 1957).

ليـــال كنـــت يـــا أمـــاه أهواهـــا وتهـــواني

وأشـــطح في مفاتنهـــا بـــأفراحي وأحـــزاني

وعقـــلي الطفـــل يـــا أمـــاه وشـــاها بـــألواني

مضت لم يبق لي منها، سوى الذكرى وسجاني

وهـذا نزيـل آخـر يـستيقظ مبكـرًا، ويقـف خلـف النافـذة الحديدية ذات القضبان المتشابكة، ويرمق الفجر وهويزحف إلى الدنيا في موكب باه طاهر، ويرى الطيور وهي تنفض عن عينيها الكرى، ويرى الزهـور وهـي تتثاءب، فتأخـذه روعـة المنظـر، وقدرة الخالق، ويتذكر أنه حبيس لا يستطيع أن ينتقل إلى هـذا الجمال القريـب ليشمه ويتحسسه وينعم بـه فيكتفـي بـالنظر، ويرسل أنغامًا شجية تعبر عن قلبه المشتاق، وروحه الباكية في قصيدة أسماها: أحاسيس الصباح[1] :

حـــين رف الكـــون بـــالروح البهـــي

وتجـــلى الفجـــر بـــاللحن الـــشجي

وأفـــاق الزهـــر ذو العطـــر الزكـــيّ

كنـــت رهـــن القيـــد في ركـــن قـــصي

أمتـــع الـــروح بـــأفراح الـــصباح

(1) مجلة السجون (إبريل سنة 1957).

يـا زهـور الحـسن والـروض النـضير
أرجـــي الجـووجـــودي بـــالعبير
طيبــي بـــالعطر أنفـــاس البكـــور
خففــي عنــي لظــى العــيش المريـــر

واكـــشفي عنـــي تبـــاريح الجـــراح

أيهـــا العـــصفور غـــن ثـــم غـــن
وأمـــلأ الــــدنيا بأنغـــام وفـــن
قد ملكت الكون فاصدح واذن مني
إن روحـــي ظـــامئ يهفـــو للحن
علنـي أقـوى عـلى قيـدي وسـجني

إنهـــا الألحـــان كالـــسحر المبـــاح

أما النزيل (م.ح) فيصف عواطفه المشوبة، ويحس بالسأم والملل من أيام السجن التي تمر رتيبة سخيفة، فينتابه الضيق والضجر، ويتلفت يمنه ويسرة، فيرى الأهل قد تركوه، والناس لا يأبهون له.. إنها للضيعة والمذلة التي تدفع الإنسان دفعًا لكي يلتمس له طريقًا آخر غير طريق الناس، فيرفع عينيه إلى السماء بعد أن ضاقت به الأرض ويهتف في زجليته «يا رب يا معبود» ويقول:

الليـــــل يفـــــوتني حـــــزين
أصـــــبح أقـــول يـــــا نهـــار
مـــــين الـــــلي يـــــرحم مـــــين
مـــــين الـــــلي يطفـــــي النـــــار

***

أبـــــص ألقـــــى النـــــاس
فـــــاتوني حتـــــى الأهـــــل
أزعـــــق وأقـــول يـــــا نـــــاس
دي الرحمـــــة فـــــوق العـــــدل

***

يـــــا رب يـــــا معبـــــود
يـــــا لـــــلي نـــــشيت الكـــــون
إن كنـــــت ليّ وجـــــود
يـــــا رب كـــــن في العـــــون

والذكرى؟؟ ما بالها هي الأخرى؟؟ إن بعض الناس يرى أن من أقسى الأشياء على الإنسان أن يذكر الأيام الجميلة وهو في ساعات بؤسه، وبعضهم يرى العكس من ذلك، إذ أن مثل هذه الذكريات تكون عاملًا مخففًا، أو رحلة قصيرة ترفيهية يذهب

الإنسان فيها تاركًا أحزانه الحاضرة وآلامه التي لا تريد مفارقته..

لكن الشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن الإنسان يشعر فيها بالحسرة من أجل ضياع تلك الفترات الزاهية الجميلة، فاستمع إلى النزيل (ح.ش) نزيل سجن القاهرة وهويقول:

فاكر عهودنا اللي مضت

فاكر ليالينا الحسان

أيام جميلة وانقضت

راحت.. وضيعها الزمان

إن الحنين عاطفة نبيلة، تحمل في طياتها الإخلاص والوفاء.. الوفاء للأهل والأحباب.. الوفاء للمكان الذي نشأت في كنفه الذكريات الباسمة، والألم هو الآخر ينضج المشاعر، ويربي النفوس ويفجر ينابيع الحكمة، ويعلم الإنسان الشيء الكثير، لهذا يقول الشاعر الفرنسي «الفريد دي موسيه»: «لا شيء يسموبقلب المرء كالألم العظيم وأجمل ما تسمع من أغاني الحياة، ينبع من هوة اليأس العميق، تلفظها أنة معولة في نشيج أبدي أليم، وليس ثمة ما يبقى على وجه الزمن غير دموع تسكبها العيون بين حين وآخر..».

فالحنين والألم عاطفتان ظاهرتان في أدب النزلاء وهما دائمًا أو في أغلب الأحيان متلازمتان.



2 -شعور القلق:

إن سجوننا المصرية ما زالت دور اعتقال وتحفظ ليس إلاّ فهي لا تهتم كثيرًا بمستقبل النزيل ولا بمصيره بعد الإفراج عنه وإذا كانت هناك بعض المجهودات التي بذلت - وتبذل الآن- للخروج من هذه الورطة كما في بعض السجون الأجنبية - فهي مجهودات ضئيلة تحتاج إلى كثير من الاهتمام..

لهذا فالسجين قلق دائمًا..

قلق من أجل مصيره الغامض المبهم..

وقلق من جراء نظرة المجتمع له.. هل سيستقبله المجتمع بالصفح والغفران ويفسح له مكانًا فيه، فيعيش وينال لقمة العيش له ولأسرته، أم أن المجتمع سوف يتنكر له، وينفر منه، ولا يعفو عن خطيئته؟؟

وأسرة السجين وذووه.. ما مصيرهم أيضًا؟؟

إن عائلهم قد أجرم.. فهل معنى ذلك أن يتناولهم العقاب رغم أنهم برءاء لا جريمة لهم ولا ذنب؟؟.

ونوع آخر من القلق ينتاب السجين داخل السجن..

إن السجين عرضة للتفتيش والمؤاخذة والعقاب، وهذا ما يقلقه دائمًا.

والسجين عرضة لمرض من الأمراض قد يدهمه فجأة ودون سابق إنذار، فيودي بحياته وهو في هذا الموقف الحرج.. وهذا ما

يقلقه.. والسجين يحلم بالإفراج في كل ساعة، وخاصة في الأيام التي تروج فيها الشائعات وتكثر.. لهذا فهو قلق دائمًا..

وهذا القلق ينعكس على إنتاجه الفني..

فهذا هو النزيل (ن.ك) يقول في عيد ميلاده:

يـــا رفـــاقي قـــد أتـــى عـــام جديـــد
مفعـــم بالـــصمت والـــسر العتيـــد
ليتنـــــي أدري خفايـــــا صـــــمته
وطوايـــــا سره النـــــائي البعيـــــد
عنـــــدها أعلـــــم مـــــاذا خطبـــــه
وأنـــــا فيـــــه شـــــقي أم ســـــعيد
كيـــف بـــالله -وقـــد حرنـــا بـــه
تـــذكرون اليـــوم في الأيـــام عيـــد

لـست أدري يـا رفـاقي أي عيـد؟..

أما النزيل (م.ب) بخيت فهو قلق من أجل حريته.. ومن أجل الغائبين:

«أنا والليل والألم الدفين
ودّقات قلبي والشوق السجين
وكذا الحنين

للغائبين

وزمجرة في النفس لها أنين

طال حبسها سنين

أتعود للحرية؟!

الحلوة الشهية..

واليأس كأشباح تمضي مهرولة

نائحة مولولة..»

في هذا الشعر المنثور، أو النثر الذي فيه روح الشعر، وفي هذا الأسلوب السهل الفطري يفصح ذلك النزيل عن قلقه الخالد.

وفي اعتقادي أن أهم مشكلة تبعث القلق في نفس السجين وتثير بلابله وأحزانه هي مشكلة أسرته، وتظهر هذه المشكلة أوضح ما تكون في قصيدة «زوجة سجين» للنزيل م.ف [1] (سجن أسيوط) إنك وأنت تقرأ هذه القصيدة بتفعيلاتها الخافقة التي تتسق مع ضربات القلب السريعة المتلاحقة، تشعر تمامًا بوقعها ومدى عمقها رغم بساطتها، إنه يقول عن الزوجة البائسة:

في الليل والظلام وسهدها الطويل

تراقب النجوم في الومض والأفول

(1) مجلة الأدب يناير 1958.

فزوجها سجين

وقلبها حطيم ودمعها سخين

وتمضي تقول بصوتها الرجيف

لبعلها الحبيب والد الصغار

وكل حبها

في همسة ابتهال.. ورجفة اعتذار.. لطيفه العزيز:

«أطفالنا جياع.. وما لهم متاع.. مآلنا الضياع.. فكيف تفتدي؟»

وما درت بأن الطيوف لا تجيب كصخر أصم بواد غريب

ثم يستطرد الشاعر النزيل قائلًا:

ويبكي علاء	ويصحو أسامه
وأخته سناء	تقوم في خفوت
بخطوها الذليل	وجفنها الكسير
وصوتها خفيض	كرعشة العصفور
تجهز العشاء	فقد صحا أسامه
وحبها علاء	قد ابتدا فطامه
وتبكي الحزينة	بقلب وجيع
وتمضي إليهم	تنيم الرضيع

تـــــــــدادي عــــــــلاء بحـــــــزن الغنـــــــاء
تريـــــــــد فطامـــــــــه فـــــأين الغــــــذاء؟

والقصيدة طويلة وفيها بعض اضطراب الوزن ونحن نكتفي بهذا القدر منها.. إن كلها إشفاق ووجل وخوف من أجل المستقبل والزوجة والأبناء، فلم لا تنطق أغاني القلق من أفواه النزلاء؟

ومن لم يستطع أن يتغنى ففي قلبه آلام كثيرة قد تذوب فتسيل على وجنتيه دموعًا، وقد تتحول إلى طاقة من الغضب والانحراف الخلقي فتحدث المشاكل والخسائر، فتتعمق الجراح، وينكأ ما شفي منها.

3 - الأدب ومشاكل السجن:

إن السجن فيه أحداثه ومشاكله، ولا يعقل أن تمر الحوادث هكذا دون أن تثير شاعرية الشعراء. أو وجدان الفنانين، وقد تتطور نظم السجون، وتتغير الأوضاع، لكن الأثر الفني يظل كما هو، مسجلًا حقبة من الحقب، أو حادثًا من الحوادث..

ولقد ذكرنا فيما سبق سوء حالة السجين المعيشية، وما يتعرض له من أضرار صحية ونفسية، وما يقع عليه من قسوة وعسف مصدره السجانون الغلاظ الأكباد، وهذه الأشياء كانت تظهر واضحة عندما يفتش السجين. أو توجد معه بعض الممنوعات التي تستوجب الجلد، وقد كان في الماضي مجرد

العثور على «بصلة» أو «ليمونة» مدعاة للتأديب، كما أن حيازة السجين لشفرة حلاقة معناها الجلد بلا جدال إلى غير ذلك من المخالفات التي يجد فيها السجانون فرصة للقسوة والانتقام والتشفي.. وسأعرض أمام القارئ جزء من في زجلية طويلة كتبها النزيل الفنان أ.ج نزيل سجن أسيوط بعنوان «عليوه»:

عليوه قام من النوم بعد الفجر بشوية
علشان عليه الدور في دلق البول والمية
مسح عليوه الأرض بعد الكنس بالخيشه
عشان ما يجي الشويش ويشوفها مجليه

* * *

دقوا الجرس للعمل وفتحوا الأبواب
وشال عليوه البول وجزّع الأنياب
من بعد عزوة قديمة ليه وشد ركاب

* * *

نزل عليوه العمل -يا ويله- متأخر
قابله شاويش الغفر وعصابته م العسكر:
«إيش أخرك يا ولد؟ هيه بقت فوضى
ولا أنت نازل في غيط أبوك تتمخطر؟»

* * *

سكت عليوه الجدع من خوفه ما اتكلم
هنعمل إيه حجته والعسكري مبلم
أحسن علاج يتكتم ما يرد ولا كلمة
يمكن كفوف الغفر على خده ما تعلم

* * *

عليوه راجل جدع حظه هو المنحوس
مسكه شويش الغفر من بخته كان مهووس
فتش ملابسه وبهدل له كل حاجاته
وجد في باكية لباسه ورقة وفيها موس

* * *

فرح الغشيم وانبسط تقولش هي لقيّه
حتخلي حاله نجف والعشرة مرضيه
لبش في جسم الجدع وقال له ما سيبك
إلا أمام الإدارة وتأديبك هيه

* * *

وفي الطريق للمكاتب قفا الجميل حمّر
وبكل نيه خبيثة الكل له شمر
زادت حرارة قفاه تقولش هو مخبز

لوكـان عليـه الرغيـف مـن حـره يتقمـر

❋❋❋

وصـل عليـوه المكاتـب يـا ويلـه م المكتـب

مـن كـتر خـوف الجـدع دمـه بـدأ يهـرب

أدولـــه علقـــه تمـــام ولبـــسوه محـــضر

عـشان يـروح الـديوان والجلـد لـه يوجـب

❋❋❋

إدولـة علقـة مليحـة.. ويـاللاع التأديـب

عـشان يـشوف القـرف والـذل والتعـذيب

وآخـر المـصيبة يجيلـك جلـد عـلى ضـهرك

يجعل جروحك عجب.. ودا فن له ترتيب

❋❋❋

الوقــت دا كــان صــعب والجوفيــه شــاتي

الأسـفلت راخـر فظيـع والـبرد كـان عـاتي

حتــى ملابــسه خــدوها.. وســيبوه حــافي

مـــسكين وحالـــه عـــدم مأســـاته مأســـاتي

....

إلخ......................................

ويظل النزيل الفنان يشرح حال عليوه، وانفعالاته النفسية، وانتظاره للجلد، وإصابته بآلام روماتزمية حادة، وكحة شديدة، ثم سوقه إلى العروسة، وتنفيذ الجلد، ثم يغمى عليه فيحملونه إلى زنزانته وهوفي حالة يرثى لها..



ومن المشاكل التي كانت ذات أثر بعيد المدى في نفوس النزلاء ونفوس الإداريين على السواء مشكلة العصبية المقيتة التي ألمحنا إليها آنفًا، إذ لم يقف بعض النزلاء المدركين لحقيقة المشكلة الفاهمين لخطورتها موقف المتفرج، بل ساهموا بفنهم في علاج هذا الداء الوبيل، وأرسلوا أشعارهم وأزجالهم في المعركة كي تحول دون تفاقم الأمر، واستعصاء المرض على الشفاء، فها هو ذا النزيل ع. هـ يقول في زجليته «البلديات»:

يا للي بتضرب أخوك إكمنه جرجاوي
وتلم كل الأسايطة وتقتلوا قناوي
وأهل قبلي يعادوا كل بحراوي
حرام عليكم يا عالم دا احنا مصريين
لا حدّ فينا انجليزي أو فرنساوي



إن كنا رح نختلف حتكون حياتنا جحيم

وإن كنـا رح نتحـد تبقـى عيـشتنا نعـيم

لازم نصفي النفوس والقلب يبقى سليم

لا فيه ضغينة ولا خصومة ولا حزازات

والـدنيا دي كلهـا مـا بتـساويش ملـيم

***

ولقـد كانـت القيـود الحديديـة ثقـلًا قاسيًا، وعبئًـا يـضاف إلى أعباء النزلاء الكثيرة النفسية والجسدية، وكانت القيود تحمل في ثناياها معنى غير إنساني، وتشعر النزيل دائمًا بأن المجتمع يرهقه ويزيد من آلامه، وإلا فما معنى هذا العنف في المعاملة؟؟ وهل حمل هذه الأثقال، والذهاب بها إلى الجبل، والنوم وهي موثوقة بالأجسام يحمل للنزيل نوعًا من الإصلاح والعلاج؟؟

وتمر الأيام، ويثبت أن الحديد سبة في جبين الآدمية، فيبادر أولو الأمر في 1955/2/10 بإلغاء هذه القيود فيهتف النزيل (ص.ج) بليمان طره، وقلبه يفيض الحمد والثناء، ونفسه تشعر بالرضا والحب، ويقول:

الليلـــــة ديـــــه عيــــد علينـــــا

عـــن صـــدورنا انـــزاح كـــابوس

الحديـــــد كـــــان ســـبّه لينـــــا

كـــــان مذلـــــة النفـــــوس

***

بنـــــد في اللايحـــــة القديمـــــة

الـــــلي ســـــابها الاحـــــتلال

نيتـــــه مـــــا هـــــش ســـــليمة

والـــــضمير وهـــــم وخيـــــال

***

ولقد كان إدخال نظام «الكانتين» في السجون نعمة كبرى بش لها النزلاء وشكروا الله عليها كثيرًا، فقد أصبحت الحلوى والسجاير والفواكه وكثير من المأكولات طوع يمينهم، بعد أن كانت محرمة عليهم، وكان مجرد حيازة «أكل ملكي» مما يفتح الطريق إلى التأذيب حيث النكد والعقاب المرير.

لكن هناك فئة كبيرة العدد لا تشعر بهذه النعمة: إذ لم يعد عليها فائدة تذكر من جرائها، لأنهم فقراء لا يملكون ما يشترون به شيئًا من الكانتين، ولا ينتظر من أسرتهم الفقيرة أن ترسل لهم ما يحتاجون من المال، ونظام السجن حتى الآن لم يضع لائحة فعلية مجدية تنظم العمل، وتعطي للنزلاء قدرًا كافيًا من المال لنفقاتهم الشخصية ونفقات أسرهم، ولا شك أن تصور فئتين من الناس إحداهما تنعم بالمأكل وتشتري ما تشاء، والأخرى محرومة من لذات الحياة ونعيمها، إن تصور هاتين الفئتين وخاصة في هذه البيئة الضيقة لما يبعث على الألم والحسرة.. أدرك

النزيل ف.أ.ط [1] بليمان طره هذه الظاهرة، فأثرت فيه تأثيرًا عميقًا فاندفع شاديًا بزجليته التي تجمع بين السخرية والتأثر، وتضع العبرة والعظة في ثوب مقبول مستساغ، مستعينًا في تشبيهاته ببيئة المجتمع الذي يعيش فيه -بيئة الليمان، يقول في زجليته «نحن والكانتين»:

سلمون وسردين والرنجة — شغل لا رنجة
حاجات تجيب مرض الدنجة — لـلي مفلس
جيوبي أنضف م الصيني — مين يديني
لولا المبادئ تحميني — كنت أهلس

***

أشوف مناظر وأتألم — وأبقى مبلم
عاوز أدرس وأعلم — مين يسمعني
الجوع مطلع أيمانهم — هد كيانهم
والفقر بيسد ودانهم — مين يتبعني

***

في كل يوم ألقى الزيطة — واسمع عيطه
أروح متبت في الحيطة — جنب الكانتين

(1) لص البنك الأهلي الذي اشتهر بجرأته وعبقريته في عالم الإجرام.

عنيـــه أسرع م «المكـــوك» محـــــروم مربــــوك
وأشـــوف فواكـه مـع شـيلوك ومربـــــه وتـــين

***

رح يجـري إيـه لـو نتعـاطف مــــش نـــساخف
ولا احنـا بقـى يعنـي مقـاطف مـــن غــــير أودان
أخـــوك فقـــير ولا عنـــدوش ولا حيلتـــوش
تـــسيبه يأكلـــه البلبـــوش؟ خليـــك إنـــسان

***

بيمـــشي وطاقـــة منخـــيرة وســـع ودانـــه
مفتوحـــة خـــالص ومبـــين كـــل أســـنانه
ويـــشم ريحـــة التقليـــة في الترزيـــة
وريقـــه يجـــري ويطلـــع كـــل جنانـــه

ومـن المـشاكل المهمـة تلـك العقـدة النفـسية التـي تتركهـا الجريمة، ويتركها السجن في حياة النزيل، فهويشعر أنه أذنب، وارتكـب وزرًا في حـق المجتمع، والمجتمع لهذا السبب يشمئز منه، وينظر إليه في شيء من الاحتقار، وعدم الثقة والتقدير في غالب الأحيان.. مثل هذه الظاهرة تحدث جرحًا أعمق في تفكير النزيـل واتجاهاتـه، وتجعلـه يحمـل المـشاعر العدائيـة والـشك والخوف بالنسبة لهذا المجتمع الذي يأبى المغفرة.. المجتمع الذي

لا يخلو من رذيلة أو إجرام لكن الظروف والملابسات قد تحجب ذلك عن العيون..

إن الزجال (ح.أ) [1] ينظر إلى المجتمع القاسي المتشكك ويقول له:

أنا شايف في عينيك خوف ما تكونش فاكرني «أبوعوف»
أنا زيك بحسّ وأفكر بصيرتي بعيدة الشوف

***

أنا عارف بأني جنيت ودفعت ثمن ما عصيت
إيه أغلى من الحرية بادفعها وأقول يا ريت

***

فيه يا ما من أمثالنا ما جراالهمش ما جرالنا
الفرق اللي بينا وبينهم إن إحنا انكشف حالنا

4 - أدب الاعتراف:

في المثال السابق قرأنا عبارة «أنا عارف بأني جنيت»، وليس مجرد العلم بثبوت الجريمة هو الاعتراف، فكما سبق وشرحنا أن كثيرين من النزلاء يغالطون ضمائرهم، ويأبون الاعتراف بجرائمهم مكابرة منهم وعنادًا، أو جهلًا وحمقًا، وقد تكون نظرتهم إلى الجريمة نظرة استخفاف، زاعمين أن ما أتوه لا

(1) من أشهر الزجالين الآن.

يستأهل كل هذا العقاب، وخاصة إذا كان للبيئة والعادات أثر في عقلية المجرم.

فالآخذ بثأر أبيه مثلًا لا يعتبر هذا جريمة، ويعتقد أنه مظلوم إذا ما حكم عليه بعقاب ما، لكن هناك فئة من النزلاء على جانب لا بأس به من الوعي والإدراك وتقدير المسئولية، وهؤلاء قد يعترفون بجرائمهم، ويسفحون عبرات الندم والتوبة من أجل وقوعهم في الخطأ، وارتكابهم للمآثم..

وبعض النزلاء يعترف بجريمته اعترافًا غير مباشر.

أعرف نزيلًا كان يكتب قصصًا قصيرة، وكان يضمن هذه القصص الشيء الكثير من آرائه ومشاعره الخاصة، ويسندها إلى أبطاله الخياليين، وفي مجلة «السجون» كان النزلاء يكتبون اعترافاتهم على نمط اعتراف النزيل «أ.ف» الذي ذكرناه آنفًا.. وكانت كتاباتهم تحت عنوان «من أرشيف النزلاء» أو «يا ما في السجن مظاليم».

وقد لاحظت أن «أدب الاعتراف» -إن صح هذا الاسم- يمضي على نمط متشابه، فكل معترف يعزو جريمته إلى ظروف قاهرة لم يستطع منها فكاكًا، أو يضع نفسه موضع المعتدى عليه أو المظلوم الذي لم يجد من ينصفه، فيثور ويدافع عن كيانه وكرامته وإنسانيته، وبعضهم يصورون جريمتهم على أنها من صنع التقاليد أو بمحض الصدفة...الخ.

فالنزيل «م.م» [1] وقد حكم عليه من داخل السجن بعدة أحكام بمجموعها حوالي 86سنة، ومر بكثير من السجون، ودخل ليمان أبي زعبل وطره -هذا النزيل يروي لمندوب مجلة «الاثنين» كيف ارتكب الجريمة الأولى ثم كيف ارتكب الجريمة الثانية، تلك التي سلكته مع معتادي الجريمة حتى أصبح أشهر من نار على علم في محيط السجون، وحتى بلغ هذا الرقم من السنوات المحكوم عليه بها. فهويروي كيف أن أحد ضباط الأقسام قد أهانه واعتدى عليه لمجرد اعتراضه على بعض تصرفات هذا الضابط اعتراضًا هينًا رفيقًا فما كان من الضابط إلا أن أخذه إلى القسم واعتدى عليه اعتداءً قاسيًا.. فتألم ونسي نفسه.. نسي أنه أمام ضابط.. ونسي أنه في القسم ونسي أن اعتداءه على الضابط جريمة ليست هينة ستودي به حتمًا إلى السجن.. نسي كل ذلك وفعل فعلته.. ثم حكم عليه.. وبعد فترة، كانت الجريمة الثانية.

دخل عليه السجان بعد أن قام بتنظيف حجرته تنظيفًا تامًا، ولمع الأرض بالبطانية التي يغطي بها جسده في المساء، ودخل السجان وقال: الزنزانة وسخة ليه؟؟

- «دا أنا منضفها ببطانيتي يا افندي..»

- «هوأنا أعمى يا ابن!!..؟؟»

---

(1) نشر بعض مذكراته في جريدة «الشعب».

- «طيب.. بص كده.. دا أنت تشوف وشك فيها..»

وفجأة أهوى السجان بيده الغليظة على وجهه، وأعطاه صفعة قوية جعلته لا يرى ما أمامه.. ومرة ثانية نسي السجين نفسه.. نسي أنه أمام سجان عات غليظ.. نسي أنه في السجن، والسجن في تلك الأيام لعنة لا تفوقها لعنة.. ونسي أن اعتداءه على السجان يعرضه للجلد القاسي.. نسي كل ذلك فانقض على السجان، ووضع إصبعه في عينه ففقأها في لمح البصر، ووقف ينظر إل السجان المصاب وهويتلوى ويستغيث..

إن أدب الاعتراف فيه من الغرابة والإثارة الشيء الكثير. فيه أشياء كثيرة تفيد الباحثين والدارسين الاجتماعيين. ولقد أتيحت لي فرصة الاطلاع على مذكرات بعض المجرمين ذوي القضايا الكثيرة، وهي تروي الحوادث بأسلوب مهلهل ضعيف من جراء نقص الثقافة لكنهم مع ذلك يقدمون الشيء الكثير من القصص العجيبة، والتفاصيل المثيرة..

5- الوطنية في أدب النزلاء:

كانت السجون المصرية من قبل منطوية على نفسها تجتر آلام العسف، وتتقلب على جمر الظلم والأحزان، وكان الاحتلال يتبع سياسة مقصودة بهدف من ورائها إلى قطع الصلة بين النزيل والمجتمع، وقتل معنوياته قتلًا تامًا..، ولم يكن النزيل يعلم شيئًا عن أحداث بلاده، أو يلم بمعاركها الكفاحية ضد قوى

الاستعمار، اللّهم إلا بعض الشذرات أو الأخبار المتناثرة هنا وهناك، والتي لم يكن فيها من الحقيقة بقدر ما فيها من الخيال، فلقد علمنا آنفًا، أن الشائعات كان لها سوق رائجة في السجون، وقلنا أيضًا أن السجين كان ينظر إلى هذه الأنباء من زاوية الإفراج أو العفو الذي يحلم به.. أما اليوم فقد سهّلت لحد ما وسائل الاطلاع للنزلاء بإنشاء المكتبات، كما سمح لهم بشراء الصحف والمجلات، بل والكتابة فيها أيضًا، ولقد استشهدنا ببعض الإنتاج الأدبي للنزلاء أثناء بحثنا هذا.. كما أن وجود أجهزة الراديو أيضًا لها أثر فعال في تنوير الأذهان، هذا بالإضافة إلى بعض الحفلات والمحاضرات التي تقام في السجون.. لهذا استطاع النزلاء أن يجاروا الأحداث الوطنية الكبرى، وأن يستجيبوا لها، ويتأثروا بما يصاحبها من انفعالات.. فتتبعوا الحركة التحررية في مصر. وعاشوا مع الوثبة الكبرى في الجزائر.. وخفقت أرواحهم مع خطوات سوريا وهي تشق طريقًا جديدًا في وحدتها مع مصر وتضع لبنات خالدة في بناء القومية العربية.. وفتحوا أعينهم على عدوان إسرائيل، وكذلك مأساة فلسطين..

ظهر هذا واضحًا في القصص التي كتبها النزلاء في مسابقة القصة القصيرة التي عقدتها «مجلة السجون» (عام1957)، وقراءة عنوان كل قصة كان كفيلًا بتأييد ما نسجله، مثل قصص:

فتاة من فلسطين - ملاك من السجن - أم البطل - الرصاصات الأخيرة - رفقة إلى الجنة - وغابت شمس الإمبراطورية - نداء الوطن - فداء - سجين الوطنية و.. و..الخ.

وظهر هذا واضحًا أيضًا في الأشعار والأزجال.

فهذا نزيل يصرخ من خلف القضبان أيام العدوان الثلاثي على مصر ويقول:

لتـــأت جحافـــل تزخـــر
كجـــيش الليـــل أو أخطـــر
فـــأرض الله لا تقهـــر
ونـــور الحـــق لا يـــدحر

لـــذا أقـــسمت أن أثـــأر

وشـــعبي الحـــر قـــد أقـــسم
بكـــل مقـــدس أعظـــم
ودوّي أمـــسه الأبكـــم
ولـــن يرتـــاع أو يحجـــم

لـــذا أقـــسمت أن أثـــأر

***

أما النزيل (أ . ز) فهو يحب كل شيء في بلاده: ترابها الخصيب، ونيلها الشهي، وهواها الصافي، وسناها الضاحي، إلى أن يقول:

بــلادي ويقظتهــا البــاهرة
وأنجــم آمالهــا الزاهــرة
وأعــين قادتهــا الــساهرة
وأزهارهــا الغــضة النــاضرة
وعــزم جميــع القــوى الثــائرة

إلى أن يقول:

بــلادي جميعًــا تحــب الــسلام
وتمــضي تــشق طريــق الــسلام
طريــق الحيــاد بــرغم اللئــام
طريـــق التحـــرر . . . .
طريـــق الـــورود . . . .
طريـــق الزهـــور . . . .
طريــق المحبــة بــين الــشعوب
طريــق الحيــاة.. طريــق الأبــاة
وليـــست تحيـــد . . .

ومـا أكثـر مـا قـال الـشعراء والزجـالون في شـتى المناسـبات المهمة التي مرت بأمتنا.. قالوا في الثورة.. وفي قيام الجمهورية.. في الجلاء.. في تأميم القناة.. في العدوان الثلاثي على مصر.. في القومية العربية، والجمهورية العربية المتحدة.. لم يتركوا مناسبة تمر دون أن يـسجلوها في إنتـاجهم، وهـذا إن دل عـلى شيء فـإنما يـدل عـلى أن النـزلاء، رغـم الجفـوة التـي بيـنهم وبـين المجتمـع، ورغـم الـضيق والألم الـذي يعانونـه مـن جـراء وجـودهم في الـسجن، ورغـم ما هـم فيه من مشاكل شخصية وعائلية تأخذ بخناقهم.. رغـم كل ذلك لم يتنكروا لـوطنهم، ولم يـصرفهم عنه قطع الصخر في الجبل، أو النسيج في الورش، بل ظلوا يحملون له أنبل العواطف، وأطهر المشاعر..



وإذا كـان لا بـد مـن تقيـيم أدب الـسجون، ووضـعه في منزلته التي يستحقها بين مختلف المذاهب الأدبية والاتجاهات المختلفة، فـإني أعتـبره -أي أدب الـسجون- صـورة مـصغرة متواضـعة «لأدب المهجـر» فلقـد التقـى أدب الـسجون وأدب المهجـر عنـد نقاط..

فالغربة التي ابتليا بها -أوبمعنى أصح رزق بها الاثنان- كان لهـا أكـبر الأثـر، وأغـاني الحنـين للأهـل وللـوطن الأصـلي، ومـا

يصحب ذلك من آلام وأشواق تجدها هنا وهناك ولاسيما مشاعر القلق البارزة لدى المهجرين تجدها أيضًا في أدب السجون، رغم اختلاف الأسباب هنا وهناك.

هذا، ولا يفوتني أن أقول بأن أدب السجون ما زال يحبو، وإن أغلبه -أوأصدقه- ينتمي إلى النوع الشعبي مثل المواويل البلدية التي يترنم بها النزلاء، ويرسلونها على الفطرة، ويسجلون فيها أحداث السجن، ومشاعرهم الخاصة إزاءها.

أما الأدب المهجري فقد بلغ مرتبة يحسد عليها.



وقبل أن نترك أدب النزلاء، أحب أن أثني على الدور العظيم الذي تلعبه مجلة السجون في هذا المجال، لأنها تفتح صدرها لأدباء السجون وترعاهم، وتنقد إنتاجهم، وتشجعهم تشجيعًا كبيرًا. ففي عام 1957 أقامت المجلة مسابقة القصة القصيرة ووزعت على الفائزين مكافآت مالية، «ومداليات» ذهبية، ولقد فتحت المسابقة الباب لكثير من الأدباء الناشئين الذين كتبوا فيها لأول مرة فأصابوا مرتبة لا بأس بها من النجاح... كما أن المجلة قد أعلنت عن مسابقة شعرية في بداية عام 1958، وجعلت موضوعات المسابقة من الموضوعات القومية والوطنية، وقد أقبل النزلاء على هذه المسابقة، كما أقبلوا على مسابقة القصة من قبل..

ولا نستطيع أن ننكر ما للسيد اللواء محمود صاحب رئيس تحرير المجلة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من فضل وتوجيه ورعاية..

فنون أخرى:

ولم يحظ الأدب وحده بعناية النزلاء واهتماماتهم، بل هناك فروع أخرى من الفن، أقبلوا عليها، وأنتجوا فيها إنتاجًا يدعوإلى الفخر والثناء.

1- النحت:

في عام 1935، لوحظ أن بعض نزلاء ليمان طره ينتهزون أوقات الفراغ القليلة التي تتاح لهم، ويحاولون نحت بعض التماثيل البدائية، ولقد كانت رغم بساطتها وعدم قيامها على أسس وأصول علمية دقيقة تحتوي على لمحات من الجمال، ولا يخفى على الناظر إليها أنها تحمل في هيكلها العام وطريقة نحتها مواهب وكفاءات لا تحتاج سوى قليل من التوجيه، فكان من الخطأ أن تضيع هذه المواهب، ويقضي أصحابها أغلب وقتهم يقطعون كتل الحجر، أو ينقلونها من مكان إلى آخر، وهذا عمل في الإمكان أن تقوم به دابة من الدواب مع قليل من العمال، ولا يصح أن يقضي فيه فنان -ينبئ مستقبله عن الخير- وقته، ويضيع فيه مجهوده، لهذا عهدت وزارة التربية والتعليم آنذاك (في عام 1935) إلى الفنان الأستاذ أحمد عثمان [1] بإنشاء قسم النحت في

---

(1) عميد كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية سابقًا.

ليهان طره، وإتاحة الفرصة للنزلاء كي يتثقفوا ويتعلموا ما يستطيعون من قواعد فن النحت وأصوله.

والمشاهد لإنتاج النزلاء من التماثيل المختلفة، يلاحظ أن القطع التي أخرجتها أيديهم يغلب عليها التقليد أعني الأسلوب الكلاسيكي (classic) وهم متأثرون بالفن الفرعوني والفن الروماني والإغريقي خاصة، فإذا ما زرت مبنى رئاسة السجون، وجدت في الردهات وفي الحديقة بعض هذه الإنتاج، ووجدت تماثيل «تحتمس» و«أوزوريس» و«حتحور» و«جوليانو»، و«بيتهوفن» وقليل من تلك التماثيل يشمل فكرة معينة مثل صياد السلحفاة، و.. و.. إلخ.

وفي اعتقادي أن توجيه النزلاء النحاتين إلى تسجيل واقع حياتهم في السجن، وواقع مجتمعهم المصري خارج السجن، مما يجعل لهم شخصية فنية، وطابع ذاتي فيما ينتجون، ولعل العذر في عدم الإقدام على هذه الخطوة هو أن معظم النزلاء ممن لا يلمون بغير قليل من الثقافة العامة، والتعليم الفني اللازم لمثل هذه المرحلة.

ومن أروع الأعمال التي قام بها النزلاء في هذا المضمار هو ترميم تمثال رمسيس الثاني المقام في ميدان المحطة بالقاهرة، وذلك بإشراف الأستاذ أحمد عثمان، فلقد فشل أحد المقاولين الأجانب في القيام بهذا العمل الذي أقدم عليه النزلاء بشجاعة وعزيمة، فانتهوا منه بسرعة ودقة تدعوإلى التقدير..

ولقد حظيت براعة النزلاء النحاتين بإعجاب الكثيرين من رجال الفن.

ويروي الأستاذ أحمد عثمان أن الفنان الأسباني «كومندادور» أخصائي تلوين التماثيل في زيارته لمصر أعجب بتمثال نصفي من الصلصال، وتمنى أن يكون هذا التمثال من الحجر حتى يستطيع تلوينه، وكان نحت هذا التمثال من الحجر يحتاج إلى ثلاثة شهور على الأقل، كما يعتقد الأستاذ الأسباني، لكن أسفه لم يطل، فعندما عرض الأستاذ أحمد عثمان الفكرة على النزيل الفنان (ع.أ) قال:

- «اتكل على الله يا أستاذ.. دا أنا ابنك وأنت اللي مربيني»

وفعلًا كان النزيل عند وعده إذ أتم التمثال فيما يقرب من اثني عشر يومًا، فلم يملك «كومندادور» نفسه من أن يصيح: «مصر.. مصر العظيمة في فنها الخالد على مر الأجيال.. الفن الذي تدرسه جميع الأمم الناهضة.. لطالما حدثت نفسي وطلابي بأسبانيا عن تلك المدينة الرائعة.. ولكني اليوم ألمس بنفسي حدثًا فنيًا صنعه مصري لا يمكن أن يتم إلا على أيدي سلالة الفراعنة الأمجاد».

وبديهي أن الاشتغال بالفن في هذه البيئة المريضة مما يساعد على تهذيب النفوس، والتسامي بالعواطف، والتنفيث عما يجيش بالصدر من انفعالات تنفيثًا يتجه إلى طريق مجد سليم، لا يمكن أبدًا أن يكون طريق الجريمة والانحراف..

2- الرسم:

إن نهضة الرسم لا تقل في السجن روعة عن مثيلتها في الناحية الأدبية، ولقد تناولت بعض الصحف والمجلات المحلية هذه النهضة الفنية بالدرس والتعليق، وأثنت عليها ثناء عاطرًا، فهذا طالب أزهري مسجون يرسم صورة بالألوان لسجين يفكر في أسرته ومستقبل أولاده، فيندهش الفنانون لروعتها ويضعها أحدهم في مصاف أعمال «بيكاسو» الفنان العالمي المعروف، وهذا نزيل آخر واسمه «أ.أ.أ» ومقيم في سجن أسيوط، يعبر في رسمه «بالباستيل» عن مشكلة الثأر وما تجره من أهوال وآلام تعبيرًا قويًا رائعًا، ويعبر أيضًا عن عاطفة الحب الطاهر بصورة أخرى تدعوإلى الإعجاب..

أما النزيل «ف.ش» وهوعلى جانب محمود من الثقافة الفنية -فإنه يعتنق السيريالزم Surrealism في لوحاته، ومن أجمل إنتاجه لوحة «القلق» المعبرة التي توحي إليك بما يقاسيه النزيل من آلام وأحزان وإشفاق على مصيره ومصير ذويه..

وفي مقدمة هؤلاء الفنانين جميعًا النزيل «ع.ع» بسجن بني سويف، فلقد تلاقى النقص الذي وقع فيه زملاؤه من النحاتين، وخلق لنفسه شخصية فنية قوية، فرسم عشرات اللوحات عن حياة السجن وأحداثه اليومية، ومشاكله المختلفة، وما أكثر ما في إنتاجه من نقد لاذع، وتسجيل رائع، ودعوة شاملة إلى التجديد والإصلاح في مجتمع السجون.

حدث ذات مرة أن زار مدير عام مصلحة السجون [1] سجن بني سويف، ورأى لوحة فنية لهذا الفنان السجين، تشتمل على نافذة حديدية وقد تعلق بقضبانها طفل صغير، ومن خلفه وقفت أمه السجينة، وتحت الصورة مكتوب «وأنا ذنبي إيه..؟؟؟» فأصدر المدير أوامره لمأمور السجن كي يطلق مزيدًا من الحرية والترفيه والاهتمام بالأطفال وأمهاتهم داخل السجن..

ولدى مصلحة السجون الكثير من هذه اللوحات كما يوجد جزء كبير منها أيضًا في السجون المركزية.. ولقد كان من المنتظر أن يعرض إنتاج هذا الفنان العظيم في متحف الفن الحديث.. [2]

***

ولقد كان للأحداث الوطنية أثر بعيد المدى في إنتاج النزلاء -كما في الأدب- فرسموا اللوحات التي تحمل في خطوطها وألوانها وتنسيقها المشاعر الوطنية الحية، والأدوار الكفاحية التي يمر بها شعبنا.

***

ومن بين النزلاء الذين برزوا في ميدان الرسم فنان كان يعمل في خارج السجن «سواق سيارة» وآخر كان عاملًا بورشة أحذية، وأغلب إنتاج النزلاء يميل إلى المدرسة الواقعية..

---

(1) اللواء أحمد زكي شكري.

(2) تم عرضه فعلًا، وقد أحدث دويًا كبيرًا في الصحافة المحلية والخارجية.

أما السمات والطابع الذي تلبسه في فن السجون فهي نفسها التي ذكرناها في حديثنا عن أدب السجون مع الفارق طبعًا.

3- الرقص ولعب العصا:

إن «فولكلور» المسجون يقوم بدور كبير في الترفيه عن النزلاء، ولعله كان سلواهم الوحيدة في الأيام الغابرة فبين جدران السجون تسمع ألوانًا شتى من المواويل التي تروي عن الجرائم وكبار الحوادث في وجه قبلي وبحري، وأغلب هذه المواويل وأهمها تتناول نواحي ثلاثة هي:

1- جرائم الثأر والفتوة (مثل موال الخط الذي أشرنا إليه آنفًا).

2- جرائم الشرف والدفاع عن العرض (مثل موال جليلة وأخوها الشاويش متولي).

3- البكاء على الديار والخلان وغدر الزمان (مثل موال سلالم السجن يا ابن الناس تسعين سلمه وكسور... إلخ).

ولقد أشرنا إلى بعض هذه النواحي في أماكن متفرقة من هذا الكتاب.

***

ومن الفنون الشعبية المشهورة بين النزلاء اللعب بالعصا..

واللعب بالعصا فن جميل برز فيه كثيرون حتى أن أحد مأموري السجون انتدب أحد مدربي العصا ليعاون النزلاء

ويهذبهم في هذه اللعبة، ولكل طريقة في لعب العصا، فالصعايدة لهم طريقتهم، والبحاروة لهم طريقتهم، وحلبة اللعب إذا ما أقيمت التف حولها عدد كبير من النزلاء، وتتبعوا الصراع الدائر بين المتنافسين في لهفة وتشوّق، وقد يصبح لكل واحد من المتنافسين أنصار ومؤيدون يتحمسون له ويشجعونه بحرارة..

ولعبة العصا تحتاج لقدر كبير من دقة الحركة، وسرعة التصرف والانتباه الزائد، فعلى اللاعب أن ينثني ويميل، ويثب هنا وهناك كي يتجنب إحدى الضربات، أو يبحث لنفسه عن ثغرة عند منافسه كي يستغلها لمصلحته، فهي تشبه لحد كبير المبارزة بالسيف.

وأهم منطقة يهتم بها اللاعب ويحاول حمايتها هي الرأس، والمعروف أن أقل ضربة في الرأس تفقد المنافس جزء كبيرًا من السيطرة على حيويته وقوة أعصابه، فضلًا عن أن التمكن من الرأس والضرب عليها يعتبر عيبًا كبيرًا، ونقصًا مخجلًا في قدرة اللاعب وكفاءته، ومعظم اللعب من النوع الاستعراضي البريء، غير أنه في بعض الحالات يساء فهم بعض الحركات، فتوشك المعركة البريئة أن تنقلب إلى ساحة قتال فعلي تؤدي إلى أوخم العواقب.

ولاعب العصا الناجح -في العادة- يستطيع أن يؤدي بعض حركات الرقص الشعبي في مرونة وجمال وهويطوح بعصاه في يمينه، وكثيرًا ما تكون هذه الرقصات -كما رأيت في المواسم

والأعياد- على أنغام الموسيقى أو دقات الطبل البلدي والتصفيق.

ولا شك أن تلك المنافسة البريئة في لعب العصا ترقق كثيرًا من حاشية النزلاء، وتهذب من أخلاقهم، وترضي في نفوسهم غريزة حب التفوق والنصر بلا ضرر يذكر، كما أنها تصريف وتنفيث لغريزة حب الاعتداء والشجار.

4- مسرحيات السجون:

تعتبر المسرحيات في السجون نوعًا من الترفيه والتوجيه، غير أنها إلى الآن لم تحظ بالإشراف الفعلي، والإرشاد الفني الواجب، فأمر النشاط المسرحي في العادة متروك للضابط المشرف، وقد يكون غير مختص بالفن المسرحي وليس لديه أية دراسات تفصيلية، ومتروك أيضًا لبعض النزلاء ذوي الخبرة والكفاءة..

وفي الواقع أن قيمة المسرح بالنسبة لإصلاح النزيل كبيرة جدًا إذا ما وجد الاهتمام الحق، والرعاية الكافية، وبهذا يصبح المسرح مدرسة ذات جدوى، فتعمل عملها في إصلاح نفسية النزيل وأفكاره.

وقد لاحظت أثناء تجوالي في السجون، ومراقبة النشاط المسرحي أنه يتناول أربعة نواحي تدور حولها أغلب الروايات التي تمثل:



أولًا: روايات تتعلق ببعض المشاكل والقيم الاجتماعية التي تتصل اتصالًا وثيقًا بالجريمة ودوافعها ونتائجها وتطورها، مثال ذلك المسرحيات التي تكتب عن مشكلة الثأر، ومشكلة القتل من أجل الميراث ومشكلة المخدرات والاتجار فيها وضررها، مثل مسرحية «علوان» التي كتبها النزيل المرحوم عبد الله زكي ومثلت على مسرح سجن أسيوط.

ثانيًا: روايات دينية. تروي تفاصيل عن ميلاد الرسول، أو هجرته، أو بعثته، أو إحدى غزواته، كما تتناول بعض الحوادث التاريخية الأخرى التي تروى عن الصالحين، والحكام العادلين، ودعاة الخير والإصلاح والتربية.

ثالثًا: روايات وطنية، وهذه زادت نسبتها في العهد الأخير وخاصة في المناسبات الوطنية والقومية، ومثل هذه الروايات تمثل أطوار الكفاح الشعبي، والصراع ضد قوى الاستعمار.

رابعًا: روايات كوميدية، وهذه تلقي كثيرًا من الإقبال والرواج بين النزلاء، ولعل ذلك راجع إلى ضيق السجن وآلامه تجعل النزيل يميل إلى الطرب، ويسعى إلى الترفيه، ويجري وراء ما يضحكه لعل ذلك ينسيه ما هو فيه من هموم وأحزان ومشاكل.



ولعل الفن المسرحي في السجون يكون له دور أضخم في المستقبل، ولا عجب في ذلك، فإن المسرحية الناجحة، ذات الهدف القويم، والعظة الفعالة لها أثر السحر في نفوس النزلاء، بل هي لا تقل أهمية وفائدة عن كثير من المواعظ الجافة، والخطب المنبرية التقليدية المملة إن لم تفقها..

5- إذاعات السجون المحلية:

قام بهذه التجربة نزلاء ليمان طره[1]، وكان لهم مطلق الحرية في تنظيمها واختيار الموضوعات المناسبة في حدود اللائحة، وبالطبع كانت تحت إشراف وتوجيه أحد الضباط، أما الموضوعات التي كانت تقدم في برنامج هذه الإذاعة المحلية فهي:

- (أ) أحاديث دينية توجيهية.
- (ب) تمثيليات إذاعية قصيرة..
- (جـ) أحاديث طبية..
- (د) أزجال من إنتاج النزلاء.
- (هـ) أغاني من إنتاج وتلحين وغناء النزلاء.
- (و) أسئلة النزلاء والإجابة عليها وتقديم مقترحات..

---

(1) وقلدهم فيها نزلاء سجن المنصورة فيما بعد.

- (ز) أحاديث مسجلة مع الإداريين تتناول آراءهم في بعض المشاكل، وتوجيهاتهم للنزلاء..

- (ع) نشرات إخبارية تتعلق بالسجن خاصة والخارج عامة..

- (ط) موضوعات ثقافية عامة..

- (ي) تسجيل الزيارات الرسمية المهمة التي يقوم بها كبار الزوار من المصريين وغير المصريين.

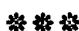
- (ك) قصص قصيرة هادفة..

وما يحتاجه المسرح من عناية وتوجيه وتنظيم، ينطبق أيضًا على هذه الإذاعات المحلية، لأنها في اعتقادي أداة فعالة من أدوات الإرشاد والإصلاح، ونظرًا لأن المادة التي تقدم فيها هي من إنتاج النزلاء أنفسهم فهي حقل طيب لتبين نفسياتهم ووجهات نظرهم المختلفة..

* * *

وهناك أيضًا المجلات المحلية لكل سجن، مثل مجلة مزرعة طره التي تطبع على الآلة الكاتبة، ومجلات الحائط أيضًا، ومثل هذه المجلات تشمل نفس الموضوعات التي تشملها الإذاعة المحلية بالإضافة إلى فن الرسم والتصوير خاصة الكاريكاتير.. وتعتبر مجلات الحائط في سجن القناطر الخيرية وبني سويف وأسيوط والمنصورة من أحسن المجلات الحائطية إتقانًا

وإخراجًا، لكن فائدة الإذاعات المحلية أعم وأشمل نظرًا لأن عددًا كبيرًا من النزلاء لا يلمون بالقراءة والكتابة.



تلك لمحة سريعة عن الفنون المختلفة في السجون من شعر وقصص ومقالات ونحت وتصوير ورقص ولعب بالعصا وإذاعات محلية ومجلات حائط، ألمحنا بها إلمامًا خاطفًا، هادفين إلى إعطاء صورة شاملة جامعة بقدر الإمكان، وخاصة بعد أن تعرضنا في الفصل الأول للقيم المتعارف عليها في السجون، وللمبادئ الاجتماعية التي تسيطر على تصرفات النزلاء وسلوكهم، وبعد أن تعرضنا في الفصل الثاني الجريمة وبواعثها والعوامل المختلفة التي تحيط بها، وتعرضنا للنظريات العقابية وفلسفاتها في أسلوب بعيد عن المصطلحات الفنية المعقدة. وعلى ضوء هذه الفصول الثلاثة فنستطيع أن ندلل ببعض الآراء والمقترحات التي قد يكون لها فائدة ما في معاملتنا لذلك المجتمع المريض. واتخاذ الدواء الناجع لعلاج أمراضه المختلفة، وقد يساعدنا هذا التسلسل المنطقي على الوصول إلى نتائج تتفق مع مقدماتها..



الفصْل الرّابع
الدين وَعِلاج الجَريمَة

الدين والحياة:

إن الدين وما فيه من قيم ومبادئ وأوامر ونواهي -له أثر ضخم في تكوين الأفراد الفكري، كما أنه يلون اتجاهاتهم وسلوكهم في الحياة، لهذا يقول الفيلسوف الفرنسي: «لو لم يوجد إله لوجب أن يخترع»، وبعض علماء الاجتماع يرون أن «الدِّين ظاهرة اجتماعية» لها آثارها وأهميتها وسلطانها على عقول البشر، والبعض الآخر يقول: إن الأديان أسمى مصدر للسعادة والهناء والسلام في دنيا الناس، وأنها هدية السماء إلى الأرض.

وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الفلاسفة الماديين وغير الماديين في أصل الأديان وتاريخها وتطوراتها فإن الغالبية العظمى تكاد تجمع على ما لها من أثر طيب فعال في سلوك الإنسان وتحركاته في هذه الحياة، فالدين إذن من الأعمدة القوية -إن لم يكن أهمها- التي يقوم عليها كيان المجتمع، ويرتكز عليها بقاؤه واستمرار تطوره.

الدين والفرد:

ولا شك أن تكوين الوازع الديني لدى الفرد بداية مهمة في مجال الإصلاح والتقويم، لأن الفرد إذا ما اعتقد أن كل تصرفاته مرصودة، وكل أعماله محسوبة عليه، وأن هناك إله لا تخفى عليه

أدق الأسرار، وأخفى الأعمال، وأن هذا الإله قوي عادل وسيحاسب كل إنسان على ما اقترفت يداه فإما إلى الجحيم وإما إلى النعيم، فإذا ما اعتقد الإنسان هذا الاعتقاد، وآمن به إيمانًا عميقًا، انتفت عن نفسه صفة عدم الاكتراث واللامبالاة، وشعر بالألم والحزن والحرج إذا ما حاد عن الحق، وترك العمل الصالح وإذا ما أقدم على فعل الخير أحس بالسعادة تغمره وشعر بأن للحياة طعمًا جميلًا، ولوجوده هدفًا ساميًا، ورسالة نبيلة، إن ذلك الإنسان الذي يتحرج من الإقدام على الشر، ويبش لفعل الخير، ويقيم في نفسه معركة وصراعًا بين النزعتين، هذا الإنسان قد تربى عنده ما نسميه بالضمير الحي أو الوازع الديني، ولا ضرر أبدًا من هذا الصراع المفيد في نفس الإنسان، لأننا لا نحصل على شيء نتمناه في هذه الحياة إلا إذا بذلنا العرق والمجهودات المتواصلة، ووجود هذا الصراع الخالد يعطي فكرة عن أن نوازع الخير والشر أصيلة في تكوين الإنسان، ولا شك أن تهذيب النوازع الشريرة والتسامي بها بطريقة بعيدة عن الكبت والإرهاق، لا شك أن ذلك سيكون مدعاة للسعادة والاستقامة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[الشمس:7-10].

ومن المعروف أن المجتمع الذي يتكون من أفراد ذوي وازع ديني يكون عقله الجمعي هو الآخر متأثرًا بالدين، راغبًا في

الفضيلة، نافرًا من الرذيلة[1] وتكوين الوازع الديني لدى الفرد ليس معناه انقطاع الجريمة انقطاعًا كليًا، فهذا غير معقول عمليًا، فستحدث الجرائم بلا جدال، لكن مقترف الجريمة سيشعر بلذعات الندم، وسياط الضمير القاسية سوف تؤرق عليه حياته، وتعكر عليه صفوه، وشتان بين إنسان يقترف الإثم ثم يبكي ندمًا وأسفًا، ويخاف من الجزاء الذي يرصده الله له؛ وبين إنسان يأتي الجريمة دون خوف أو ندم، ودون أن يقيم اعتبارًا لعقاب أو جزاء، ودون أن يكترث بجنة أو بنار..

* * *

والإسلام مثلًا يضع للمجتمع حدودًا وقيمًا تنظم صلات الناس بعضهم ببعض، وتنشر بينهم نزعات إنسانية عامة، فيشعر الإنسان في ظل هذه النزعات برباط الأخوة والحب والعدالة والمساواة.

الدين والمجتمع:

إن الدين يؤكد فضيلة التسامح والتواد والتعاطف بين أفراد المجموعة ووجود هذه الصفات -إذا ما اتخذت صورة فعلية حقيقية- سيخفف كثيرًا من حدة الصراع الطبقي الذي لا نجني من ورائه غير عواطف الحقد والكراهية والعدوان والاستبداد،

(1) «الإسلام والسلام العالمي» تأليف سيد قطب.

ففي ظل هذه الرذائل تكثر الجرائم وتجد الجو المناسب لها، والبيئة التي تغذيها وتنميها..

والمجتمع الذي تسود فيه عواطف التسامح والتواد والتعاطف لا شك سيكون مجتمعًا فاضلًا، يعطي الفرصة لأفراده كي يعملوا وينتجوا ويعيشوا عيشة شريفة هادئة، وسيكون تكافؤ الفرص عنصرًا رئيسيًا في نظامه العادل.

إن الدين مقدس:

وكل ما يتعلق به من نصائح وأوامر ونواهي مقدس أيضًا.

والقيم التي يرتضيها المجتمع والتي يستمدها من الدين ستكون مقدسة هي الأخرى، وسيتردد المجرم مرات عدة قبل أن يعتدي عليها.

هذه القداسة التي تتعلق بالدين وتعاليمه لها سلطانها الكبير على النفوس.

الدين والقانون:

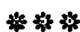
واضح إذن أن الدين يلجأ إلى الضمير ويهذبه ويمنيه بالثواب الجزيل، والجزاء الأوفى إذا ما سار في طريق الحق والفضيلة، ويتوعده بالعذاب وسوء المصير إذا ما سلك سبيل الغواية والضلال والجريمة.

فالدين قد أقنع الناس بأن وراء هذه الحياة الدنيوية حياة ثانية بعد الموت، وستكون هذه الحياة المقبلة موطن السعادة الحقة،

والهناء الأبدي لمن رضي الله عنه، وستكون مهدًا للآلام لأرباب الخطايا وعشاق الرذائل. أما القوانين الوضعية فقد عمدت إلى العقاب السريع، والجزاء الدنيوي العادل، لأن المجتمع البشري بطبيعته يدرك أن هناك فئة من الناس قد ضعف سلطان الدين عليها، ونظرت إلى الجريمة نظرة خاطئة، فأقدمت عليها بلا اكتراث، فأرقت أمن الناس وسلامتهم، فكان لزامًا على القضاء أن يأخذهم بالعقاب العاجل حتى يرى الناس ما يتعرض له هؤلاء المارقون من عقاب ومؤاخذة حتى لا يصير عملهم هذا سنة متبعة، وعرفًا جاريًا.

فالقانون الوضعي يترك أمر العقاب الأخروي ولا يشير إليه، بل يعمد إلى أخذ حقه في الحياة الدنيا، لكن يجب ألا ننسى أن الأديان قد جمعت بين الناحيتين، فقد وضعت عقوبات لكل من تسول له نفسه أن يجرم في حق غيره، لكنها أدركت أن بعض المجرمين يفلتون من يد القانون فلا تثبت عليهم إدانة لنقص الأدلة، وضعف القرائن، وبعضهم يقترف جريمته في خفية عن الناس فلا يعلم أحد عنه شيئًا على الإطلاق، وهذا الصنف الذي لم يستطع العقاب الدنيوي أن يصل إليه، تكفل به العقاب الأخروي المنتظر الذي أبرزه الدين في صورة رهيبة، وحذر منه الناس، ولم تكن هناك وسيلة أخرى سوى وسيلة الوعيد الأخروي.

والدين لم يجعل أمر العقاب الأخروي مبهمًا مجملًا، بل بين للإنسان خطورة جرائمه وآثارها الضارة، ومنافاتها للطبائع السليمة، والخلق الطاهر. فالدين الإسلامي مثلًا يصور جريمة القتل تصويرًا قويًا إذ يقول: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة:32]، ثم يجعل «النفس بالنفس» حتى تكون العقوبة مساوية لفظاعة الجرم، لكن هل يكفي؟؟؟ لا.. فيجب إذن أن يصور الإسلام هول العقاب الأخروي، ويجب أن يرسم للجاني صورة ما اقترف من إثم تصويرًا مخيفًا. وهل هناك أقوى من هذا التصوير الذي يجعل قاتل النفس الواحدة شبيهًا بقاتل الناس جميعًا؟؟ ولا غرابة في ذلك فإن الجناية في كلتا الحالتين ما هي إلا اعتداء على قداسة الحياة ذاتها..



وأوضح من هذا الاستطراد أن القانون وحده مجردًا لا يكفي لعلاج الجرائم، بل يجب أن يضع يده في يد الدين، بل إن الدين الإسلامي يجعل من القوانين الاجتماعية فرعًا منه لا كائنًا خاصًا منفصلًا له فرديته واستقلاله.



الدين والمجتمع المصري:

بعد هذه المقدمة التي لا بد منها نريد أن نسأل سؤالًا وهو: هل مصر بلد متدين؟؟؟

إن الإجابة على هذا السؤال قد يكون لها دلالات مهمة، وستوضح لنا أكثر وأكثر أثر الدين وجدواه في علاج الجريمة، لأن الإلمام بظروف مجتمعنا ومعتقداته وتطوراته الخاصة يساعد على ما نحن بصدده من التماس وسائل الدرس والإصلاح والعلاج.

إن منطق التاريخ يؤكد أن مصر بلد متدين، وللدين الأثر الأكبر في تاريخها الطويل المجيد، وفي كبريات الحوادث والتيارات الفكرية والفلسفية. كانت عقيدة قدماء المصريين في الله راسخة متغلغلة في أعماق وجدانهم وحياتهم، وكانت آثار هذه العقيدة تنعكس على شتى مرافق الحياة، فتلونت بها نظم الحكم ونظم التعليم، وكانت أوضح ما تكون في حياتهم الفنية، فهذه الأهرامات الشامخة الخالدة، والآثار الكثيرة وما نقش عليها من أساطير وحكم وتواريخ تؤكد هذه الحقائق، وباسم الدين قامت مملكة آمون، وباسم الدين قامت انقلابات كبيرة خطيرة. وعلى أرض بلادنا كان لبني إسرائيل (اليهود) والمسيحيين والمسلمين جولات وأيام باقية على الدهر.. في شتى العهود كان للدين أثره البعيد المدى في تحركات الحكام والجماهير، وفي صياغة القيم الاجتماعية ونسق الحياة بشتى

ألوانها وأشكالها، ويشهد بذلك كثرة المناسبات والأعياد الدينية، وكثرة الأولياء المنبثين في كل مكان، سواء القرى والمدن، حيث القباب والمقاصير والمآذن العالية، وعشرات الطرق الصوفية وأتباعها العديدون، ونزعات التعصب لمختلف المذاهب والطوائف.

الدين في السجون:

إن اللص وهويتسلل إلى البيت الذي يريد سرقته يقول حينما يدلف إلى الداخل مشفقًا وجلًا: «يا رب يا ساتر..»

وحتى القاتل الذي يحتمي في الظلام لينفذ جريمته الشنعاء، ويريق الدم في غيظ وحقد، يهتف من أعماقه قائلًا «الحمد لله.. لم يرني أحد» والنزيل (م.م) هو الآخر يروي لي كيف ضاقت به السبل ولم يجد ما يقتات به يومين كاملين، وفجأة رزقه الله برجل عربي يلبس العباءة والعقال، فاستطاع محمد مرجان أن ينشله، ويعلق محمد قائلًا: «هوأنت فاكر إن ربنا ينسى عبيده؟؟».

ثم يقبل يده ظهرًا لبطن ويقول: «ربنا فضله كبير».

ثم (ع.أ) المجنون ذلك الذي يهتف بصوته الأجش في الليل والنزلاء نيام ويقول: «ربنا يعدلها يا أولاد الو....»، فانظر كيف تجتمع كلمة «ربنا يعدلها» مع كلمة «أولاد الو..». ليس هذا فحسب، بل إن بعض اللصوص يتخفون في زي رجال الدين والدراويش حتى تتاح لهم فرصة ارتكاب المخالفات وهم

في شيء من الاطمئنان والثقة التي يسبغها عليهم هذا الزي - مجرد الزي الديني - لما للدين ورجال الدين من سلطة على النفوس، وما أكثر المشردين الذين يخفون إجرامهم بالمسابح الطويلة التي تتدلى من أعناقهم أو تشتبك في أيديهم، وباللحى الكثة التي تهبهم شيئًا من الوقار المصطنع، وما أكثر أولئك الذين يعتصمون بالصمت، ولا يكفون عن التمتمة، وجفونهم مرتخية شأن أولياء الله الصالحين، ولقد سبق وأشرنا إلى أن بعض النزلاء يجمع حوله الأتباع والأنصار، وينصب من نفسه شيخًا جليلًا متصوفًا، ثم يعظ وينصح، بل يعالج من الأمراض النفسية والجسدية، ويجد كثيرًا من السذج الذين يؤمنون به ويستجيبون لوصاياه..

ونظرًا لسيطرة العقائد الدينية على النفوس في وطننا، فإن رجال الطرق الصوفية - وهم الطائفة الدينية الأشد التصاقًا واقترابًا من الشعب - هؤلاء الرجال يجذبون حولهم الأتباع الأشياع، ويجعلون لأنفسهم بين هؤلاء نفوذًا قويًا وكلمة مسموعة.. بل إن الطرق الصوفية رغم بعض عيوبها قد استطاعت هداية عددًا من المجرمين والمنحرفين، ودلتهم على ما يسمونه طريق الهداية والتوبة، وقد رأيت بنفسي الكثير من هذه الحالات..

فنزلاء السجون ورغم ما وقعوا فيه من وزر، وتورطوا فيه من إثم، ما زال الحنين يدفعهم إلى منابع الدين، وما زالت

الأحاديث الدينية العاطفية تجد طريقها إلى القلوب فتؤثر فيها، وتبدل من طبيعتها..

كان أحد النزلاء المحكوم عليهم في جريمة قتل يبكي بكاء مرًا، ويترك نفسه نهبًا للآلام والأحزان والندم، والعجب أن هذا القاتل كان من الصعيد.. أجل كان يبكي. كلما تذكر جريمته، وتذكر أن الله سيحاسبه حسابًا عسيرًا وقد يقذف به إلى جهنم، فأشار عليه واعظ السجن أن يؤدي «الكفارة» وهي صيام شهريين متتابعين بحيث إذا أفطر يومًا واحدًا لعذر أو لغير عذر، فعليه أن يصوم الشهرين من جديد، وبهذه الطريقة تكون توبته صادقة، ورضا الله عنه قريب، فلم يتوان النزيل في تنفيذ ما أمر به الواعظ..

هذا ويجب أن نشير إلى أن هناك طائفة من النزلاء المتحللين الذين يحاولون التملص من الدين كلية، ويفرون من قيوده وحدوده، وهؤلاء نشأوا -على ما يظهر- في بيئات وظروف معينة دفعت بهم إلى هذا المروق..

الوعظ في السجون:

تتبعت النشاط الوعظي في سجن أسيوط لمدة معينة فلاحظت ما يأتي: (1)

(1) كان ذلك في الفترة ما بين يناير وأغسطس سنة 1957.

1- الواعظ اسمه الشيخ (س)، وعندما سألت على مؤهلاته لم أجد عنده مؤهلات على الإطلاق تجعله كفئًا لهذا العمل الخطير فهو مجرد رجل يحفظ القرآن الكريم، ويقرأ ويكتب، بل إن قراءته قاصرة كما كان يحدث دائمًا عند قراءته لخطبة الجمعة..

2- كانت شخصية الشيخ (س) شخصية ضعيفة هزيلة، بل إن شخصيات كثير من النزلاء كانت أكفأ وأقوى منه، وهذا لا يتناسب مع الدور الخطير المنوط به، ودور التأثير والتوجيه والإصلاح.

3- الشيخ (س) ثقافته العامة في منتهى الضآلة والتفاهة، فهو لا يعرف شيئًا عن الإشراف الاجتماعي ولا نظريات الجريمة ولا شيئًا من علم النفس، والعقد النفسية وسلوك المجرمين وتفسيره العلمي وما إلى ذلك من الثقافات العامة التي يجب الإلمام بها ولو في نطاق محدود.

4- كان الشيخ (س) لا يعرف سوى أن يقول هذا حلال وهذا حرام، ولم يكن إفتاؤه يستند على أساس علمي سليم أو دراسة فقهية ولو قليلة، فإذا ما تكلم عن المخدرات قال:

- «الحشيش حرام».

فيرد عليه أحد النزلاء قائلًا:

- «مين اللي قال الكلام ده يا أستاذ».

- «الشرع».

- «اذكر لي الآية اللي بتحرم الحشيش في القرآن».

- «الحديث بيقول: «كل مسكر حرام.. وما أسكر قليله فكثيره حرام»..

- «لا.. أنا عاوز آية قرآنية».

- «ليه؟؟ مش عاجبك الحديث وإلا إيه؟؟».

وهنا يتطوع نزيل آخر بالرد على زميله، والشيخ يجلس على كرسيه، مستمتعًا بالمناقشة التي تزداد حدة، ذاهلًا وسط الضجيج الذي يعلورويدًا رويدًا، ولا يفيق إلا على الشتائم التي يتبادلها النزلاء من أجل الاختلاف في الرأي، وفي تفسير كلام الشيخ.. فيسارع الجاويش السجان بخيزرانة كي يكمم الأفواه، وقد يغتاظ ويأمر الجميع بالذهاب إلى زنزاناتهم قبل أن يتم الشيخ الوعظ.

تكررت هذه الصورة مرات متعددة، مرة من أجل الحشيش، وأخرى من أجل الأفيون، وثالثة من أجل السرقة، ورابعة من أجل الأخذ بالثأر وهكذا.. وفي كل مرة لم أسمع من الشيخ إلا كلمة حلال أو حرام يقولها بكل بساطة وعدم اكتراث كأنها وحي هبط من السماء ولا تحتاج إلى أدنى جدال.

ولم أسمع من السيد الواعظ مرة واحدة تحليلًا معقولًا لمشكلة من المشاكل، وعرضها عرضًا ينبني على أسس وقواعد

تدل على شيء من الاطلاع والفهم والإدراك لمشاكل النزلاء واحتياجاتهم..

5- ولاحظت أيضًا أن النزلاء المشتغلين في الورش، مثل ورشة النسيج والترزية والنجارة.. إلخ، لم تتح لهم الفرصة مرة واحدة لسماع الوعظ، وإنما الوعظ -في الغالب- كان وقفًا على الذين هم تحت التحقيق والمخزنين من النزلاء، وهذا أمر يؤسف له، إذ لا يكفي أبدًا أن يستمع هؤلاء مرة كل أسبوع لخطبة الجمعة وهي رسمية في إلقائها، تقليدية في موضوعاتها المعادة المكررة، ومعانيها التي لا جديد فيها، وماذا تنتظر من خطيب ينقل الخطب من ديوان قديم يرجع إلى أيام السلاطين العثمانيين؟؟؟ (1)

6- ولاحظت أيضًا عدم اهتمام الإدارة بمسألة الوعظ الديني فليس هناك مكان نظيف معد لذلك، وليس هناك تشجيع لدفع النزلاء إلى الاستماع والتفكير فيما يلقيه الواعظ عليهم من خطب والعمل بها، كما لاحظت أيضًا أن النشاط الوعظي -رغم تصوره- يتناقض مع السياسة العملية التي تنتهجها إدارة السجن، فالواعظ يتحدث عن الرحمة وحسن الخلق، والتعاون والعطف ونظافة اللسان، ويوصي النزلاء بها، لكن سرعان ما يتعرض النزلاء لألوان القسوة والاحتقار

(1) ليست كل السجون على هذا المنوال، فهناك شيء من التفاوت.

والشتائم وعدم الثقة من السجانين فيضيع أثر المواعظ والخطب، وتصبح عديمة الجدوى، ضائعة المفعول. وذلك لاتخاذ السجانين طريقًا غير طريق الوعاظ..

7- لاحظت أن الوعظ في السجون لم يخرج عن النظام التقليد المعروف وهوأن يقف إنسان ذو زي معين ثم يرصف بضعة جمل وينمق عددًا من العبارات البراقة المسجوعة ثم ينصرف، ولم يلجأوا حتى الآن بصورة جدية إلى اتخاذ المسرح وغيره وسيلة من وسائل التجديد والإصلاح في الوعظ..

8- المواعظ مليئة بالخرافات والأساطير السخيفة التي لا تتفق مع حقائق الدين، وأسلوب العصر، وظروف السامعين من النزلاء.

9- إن التقاء النزيل بالواعظ يحدث بصورة جماعية رسمية، فلم يحدث أن اتصل الواعظ بأفراد النزلاء اتصالات خاصة على انفراد حتى يفهمهم عن كثب، ويرشدهم إلى الطريق القويم، ويتيح لهم فرصة القدوة الحسنة، والتقليد الخلقي الكريم، والواعظ الديني أشبه بالمشرف الاجتماعي في ضرورة تعرفه على النزيل، وتبسطه معه حتى تجد مواعظه آذانًا مصغية..

***

وقد يكون في بعض السجون قدر من التطور -ولوبسيط- وقدر من الاهتمام والرعاية، ولكن المظهر الغالب هو أن نظام

الوعظ في السجون فيه ثغرات كثيرة كبيرة تجعله فاشلًا لا يؤدي الغرض المطلوب منه، لهذا نقترح الآتي علاجًا لمشكلة الوعظ في السجون:

1- إن أي سجن لا يقل أهمية عن أكبر مسجد من مساجد القاهرة.

فالسجن هو المجتمع المريض، ولا شك أن من اعتلت صحته يكون في مسيس الحاجة إلى علاج أسرع، ورعاية أكثر، لهذا يجب أن يكون وعاظ السجون على درجة كبيرة من الثقافة الدينية والاجتماعية حتى تكون شخصيتهم العلمية متينة قوية التأثير.

2- أن يتاح الوعظ لكل طوائف المسجونين بدون استثناء فلا يكون العمل في ورش النسيج، أو قطع الحجر في الجبل عائقًا عن قيام الواعظ بعمله.

3- أن يكون في كل سجن مسجد بجوار المدرسة، وأن توقف الأعمال في الورش عند صلاة الظهر والعصر (وهما الفرضان اللذان من الممكن أن يكون النزلاء أثناءهما خارج الزنزانة)، فتقام الصلاة جماعة بإمامة الواعظ، لأن المستهتر إذا ما ترك لنفسه تكاسل عن أداء الفروض.

4- أن تزود السجون بمكبرات الصوت حتى يستطيع الجميع التمكن من سماع المحاضرات والخطب والتعليمات أيضًا..

5- أن تتبع أساليب أخرى من الوعظ غير أساليب الخطابة.

6- أن يكون هناك نوع من التجاوب والتناسق بين سياسة الإداريين في السجون، وما يلقيه الوعاظ من دروس ونصائح واستمساك بالمثل العليا والأخلاق الحميدة.

7- أن يكون هناك صلة شبة فردية بين الواعظ وبين من يستطيع الالتقاء بهم من النزلاء حتى يفهم نفسياتهم واحتياجاتهم عن كثب، حتى يدرك الموضوعات التي تشغلهم كي يتناولها في خطبه وأحاديثه، وأن يكون الواعظ نفسه - وكذلك الإداريون- قدوة طيبة للنزلاء حتى تؤتي المواعظ ثمارها، لهذا يقول مدير عام مصلحة السجون سابقًا اللواء أحمد زكي شكري: «وسبيلنا في ذلك هو السبيل الذي رسمه القرآن الكريم في هدايته إلى ما في الوجود من دلائل قدرة الله وحكمته مع سير الأنبياء والمؤمنين مما يمثل القدوة، ويبين العبرة، وإظهار هذه الحقائق في صور مختلفة، وأساليب مشوقة؛ لتستقر في العقول، وتطمئن بها القلوب، على أن يتخذ المدرس من مشاهدات الدارسين وبيئاتهم أمثلة تقوي المعرفة وترسي أصولها في أذهانهم.. مع مراعاة ما يناسب كل فريق وما يلائم مستوى إدراكه.. وأهم من ذلك أن يكون القائم بالتعليم أو الإرشاد

عنوانًا مثاليًا لما يحاول تركيزه من المعلومات...، .. إلى أن يقول: «إن قيام واعظ أو مدرس بإمامة النزلاء أو الجنود في صلاة يومية في خشوع ورهبة لا يقل في نظري عن محاضرة، أو عن موعظة لمئات المستمعين..».

8- إن اللجوء إلى التأديب في كل ما صغر وكبر من المخالفات أمر عجيب حقًا، فلم لا يستعان بالواعظ الكفء في مواجهة بعض المشاكل الصغيرة لعله يقضي عليها من جذورها، ويحلها بطريقة قد تكون أوفق من العنف والقسوة والعقاب؟؟ ولم لا يقضي الواعظ في السجن فترات أطول مما هو متبع، فيزور الورش المختلفة، ويحادث النزلاء، ويحاول في أثناء مروره أن يشجعهم، ويبتسم لهم؟؟ هذه أمور كلها في الإمكان، ولا تحتاج لغير العزيمة الصادقة والبدء في التنفيذ..



هذا بإيجاز ما نراه بالنسبة للناحية الدينية، لأننا نؤمن بأن الدين دواء ناجع من أدوية علاج الجريمة، ونؤمن أيضًا بأنه يمد النزيل في محنته بالسلوى والعزاء حتى لا يترك السجن وآلامه ونظمه أثرًا سيئًا في نفسه يدفعه إلى الانحراف والميل نحو الشر، وحمل البغض والكراهية للمجتمع الذي يعاقبه، ويلقي به مهملًا منبوذًا في هذا المكان.

والعلاج عن طريق الدين لا يصح أن يكون قاصرًا على من اقترفوا الجريمة فعلًا وألقي بهم في غيابات السجون، لأن ذلك المجتمع المريض -مجتمع السجون- جزء من المجتمع الكبير الخارجي، والعلاج الديني يجب أن يتخذ طريقه وسط هذا المجتمع الكبير، ويجب أن يبدأ من زمن مبكر، فعندما يكون الطفل في سن الإدراك يجب أن يلقنه البيت مبادئ الفضيلة، كما يجب أن تقوم المدرسة بمجهود كبير لتثقيف الطفل تثقيفًا دينيًا كاملًا، يتناسب مع روح العصر، ومطالب الحياة، واضعين نصب أعيننا المشاكل والانحرافات التي تأتي نتيجة للإهمال في تكوين الوازع الديني لدى الفرد، فلا نكتفي أبدًا بأن نعلمه بعض السور القصيرة، والآيات الموجزة دون أن يفهم معناها، ولا يصح أن نقصر الأمر على تلقينه نواقض الوضوء وفرائضه وسننه فحسب، بل يجب أن يكون تثقيفه الديني حاويًا شاملًا. وأن نركز كثيرًا من جهودنا على تقويم الناحية الخلقية، وغرس بذور الخير والحب والفضائل في نفس الشبية..

وهذه حقيقة آمن بها رجال القانون، والباحثون الاجتماعيون كما أن صاحب كتاب «شفاء الروح»[1] -وهو ترجمة لكتاب أجنبي اسمه «عدت إلى الدين»- قد جعل هذه الحقيقة أساسًا لبحثه القيم، وأكد بما لا يدع مجالًا للشك، أن إصلاح النفوس،

---

(1) سلسلة كتب للجميع..

وإنقاذها من عقدها المستعصية يعتمد إلى حد كبير على الإيمان بالله وتنمية الوازع الديني في النفوس..

هذا إذا أردنا أن نخلق مجتمعًا سليمًا معافى يقدس المثل العليا وينفر من الجريمة وما يتعلق بها من نقائص ورذائل.

* * *

الفصل الخامس
الاقتصاد وعلاج الجريمة

يقول العلامة الكبيرة بنتام: «إذا حرم المرء طريق المعيشة، كانت الحاجة من أقوى البواعث الدافعة على ارتكاب أكبر الجرائم ليحصل على ما يقتات به»..

وأصحاب المدرسة العقابية الوضعية، يرون أن البيئة هي التي تخلق المجرم وأن المجتمع عليه الوزر الأكبر في ارتكاب الجرائم والتمهيد لها[1]، والسبب في ذلك هو ضعف الحالة الاقتصادية وانخفاض مستوى المعيشة لدى الأفراد[2]..

وقد أثبتت الإحصاءات الرسمية لنزلاء السجون أن أغلبهم من الفقراء ذوي المستوى المعيشي المنخفض، وبالبحث والدراسة لهؤلاء المجرمين ثبت أن الحاجة -كما يقول بنتام- من أقوى البواعث الدافعة لهم على ارتكاب أكبر الجرائم ليحصلوا على ما يقتاتون به.

ولقد كان للنظام الاقتصادي الفاشل في مصر -أثر كبير في إيجاد هذه المشكلة، وكثرة جرائم السرقة والاختلاس والرشوة..

وهناك طائفتان وهما اللذان سنعنيهما بالكلام هنا، ونقصد:

(1) العمال..

(2) العاطلين..

---

(1) انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(2) النظرية الماركسية تجعل الاعتبار الكلي للاقتصاد.

العمال



ونقصد بالعمال كل من وجد له عملًا يرتزق منه، سواء أكان موظفًا أو عاملًا صناعيًا، أو عاملًا زراعيًا، أو تاجرًا من التجار:

(أ) والعامل الزراعي:

أبأس هذه الطوائف وضعًا، وأشقاها حياة رغم أن الجرائم التي يرتكبها -حسب الإحصائيات- أقل نسبة من عمال المدن، ولعل ذلك راجع إلى أن كثيرًا من المثل والقيم الدينية في الريف أعمق أثرًا، وأشد سلطانًا على النفوس من مثيلاتها في المدن، فضلًا عن أن فرص السلب والنهب في الريف الفقير في عمومه لا تعطي فرصة كبيرة للتحريض والطمع والجشع، كما أن الفلاح المصري قد جبل على مزيد من القناعة والاستمساك بالشرف، وخاصة في هذا المجتمع الريفي المحدود الذي لا تكاد تخفى فيه نقيصة، ولا تكاد تستر فيه جريمة من الجرائم، ولهذا فذووالسلوك الخاطئ معروفون لدى كل القرية، بل لدى القرى المجاورة أيضًا.. فما هو أجر هذا العامل الزراعي؟؟

إن الدولة قد حددته بمبلغ معين من القروش، حريصة في ذلك على رفع مستواه.

إن قرية (ش..) في مديرية الغربية تعداد سكانها حوالي اثني عشر ألفًا، وعدد الأغنياء الذين يملكون أكثر من عشرين فدانًا ثلاثة، وعدد الذين يملكون في حدود العشرة أفدنة لا يزيد عن ثمانية ومتوسط الملكية لدى الطبقة الوسطى -إن صحت هذه التسمية- يتراوح بين فدان وثلاثة أفدنة، وعدد هذه الطبقة ليس بالكثير، أما الباقون -وما أكثرهم- فلا يمتلكون شيئًا على الإطلاق أو يمتلكون قراريط لا تزيد على العشرة غالبًا..

إن من يمتلك عشرة قراريط وهويكفل أسرة مكونة من زوجة وأطفال وأم تصبح الحياة عليه شاقة وعسيرة، لهذا يلجأ إلى استئجار أرض من ذوي الأملاك -وما أقلهم- وفي نفس الوقت يلجأ إلى العمل بالأجر اليومي وتهاون في أجره الذي حددته القوانين التي تحرص على مصلحته لدى أثرياء القرية، لأن أغلبهم يتولون بأنفسهم زراعة أرضهم ولا يؤجرون منها شيئًا إلا فيما ندر.. ويلاحظ أن قانون الإصلاح الزراعي عندما أريد تطبيقه في المركز الذي تتبعه هذه القرية لم يجد الموزع قيراطًا واحدًا لتوزيعه على الفقراء.. لهذا يقبل العامل الزراعي أي أجر يومي مهما كان منخفضًا حتى يقيم أوده وأود عياله، وبعضهم يضيق ذرعًا بهذه الحياة فيهاجر إلى المدن لعله يجد ما يرتزق منه، وقد لاحظت أن الهجرة لدى الفلاح المصري شيئًا ممقوتًا كريهًا، وتركه لأرضه وأهله وسكان قريته أمر الموت أيسر منه.. [1]

---

(1) تغيرت النظرة إلى الهجوم اليوم (1980) وانعكست الصورة.

إن مثل هذا الجوقد يحرض على الانحراف، ويدفع إلى ارتكاب الجرائم، فنرى بعض الفتية يسرقون القطن من الحقول تحت ستار الليل، وسرقاتهم لا تتعدى بضعة قروش، وهؤلاء يكونون العصابات لسرقة الخراف والماعز أو البهائم والحمير، وقليلون أولئك الذين يسرقون النقود، والبعض الآخر يسرقون كيزان الأذرة، والقمح والفول.. إلخ. وكثيرًا ما قامت المشاجرات الدامية من أجل «كوز» من الأذرة حاول أحدهم اقتلاعه، بل إن معركة قامت -كما قلنا- من أجل خمسة وعشرين قرشًا ثمنًا لمساحة برسيم صغيرة، وراح ضحيتها أرواح كثيرة..

ولقد ألف أهل القرية -المشار إليها آنفًا- أغنية عن فتاة فقيرة لم تجد القوت لضيق ذات اليد، فسرقت بطة وذبحتها وأكلتها، وكانت هذه الفتاة المسكينة عمياء، وكانت الأغنية ساخرة أليمة، لم يراع فيها ظروف الفتاة، ولا حالتها المعيشية، لذلك كانت تبكي بكاءًا مرًا، لكن لم يكن هناك مناص من حبس عائلها بسبب جريمة السرقة، وقد اعترف العائل بالجريمة وألصقها بنفسه حتى ينقذ الفتاة..

إن سوء الحالة المعيشية يتفرع منه جرائم عدة مثل جرائم السرقة والنصب والاختلاس وخيانة الأمانة واستخدام الربا الفاحش وقد تؤدي هذه الجرائم بدورها إلى جرائم القتل، فتورث الأحقاد وتؤجج نار الفتنة بين المجتمع..

لهذا نقترح الآتي بالنسبة للعمال الزراعيين:

1- تشجيع الهجرة بشتى الطرق والوسائل ومحاولة التغلب على تلك العاطفة الزائدة نحوا الأهل والموطن أذي يفضله الفلاح على غيره راضيًا بما يرزح تحته من بؤس وفقر يدفعان إلى الجرائم.. [1]

2- محاولة إنشاء بعض المصانع بالقرب من القرى حتى تكون مصدرًا آخر من مصادر الرزق لدى الفلاحين، ولقد نجحت تجربة إقامة مصانع الطوب على شاطئ بحر شبين نجاحًا كبيرًا، وكذلك نجحت صناعات أخرى غيرها، ولا شك أن إيجاد مثل هذه المصانع سيصرف عددًا من العمال الزراعيين إليها، فإذا ما قل عددهم في القرية كان ذلك مدعاة لرفع أجورهم، وعدم استغلالهم ذلك الاستغلال المشين، كما يجب تشجيع بعض الصناعات الريفية..

3- إشراف الحكومة إشرافًا جديًا على أجر العمال الزراعيين، إذ ليس من الإنصاف أن تقضي الفتاة أو الفتى نهارًا كاملًا -من مطلع الشمس إلى مغربها- في جمع محصول القطن، أو تنقية القطن من إصابة الدودة، أو تنقية الأرز من بعض النباتات الضارة به، أو إدارة الطنبور، أو عزق الأرض.. أو.. أو... الخ مقابل مبلغ زهيد..

---

(1) حدث أن أحد الفلاحين في القرية التي أشرنا إليها رفض الانتقال إلى بلدة كفر سعد لاستلام خمسة أفدنة رغم أنه لا يملك في قريته قيراطًا واحدًا.

4- محاولة إعانة أكبر عدد ممكن من هذه الأسر الفقيرة عن طريق وزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الأوقاف وعلى نطاق أوسع، أما تأجيل هذه الإعانات حتى يتورط هؤلاء المواطنون في الجريمة، وإعطائها لهم عقب خروجهم من السجن فهذا تصرف خاطئ، إذ يجب أن نحاول توقي الجريمة ولا يصح أن ننتظرها حتى تقع ثم نعالجها..

5- الإشراف الدقيق على الناحية الصحية، ومعاونتهم في ذلك حتى لا يقعوا فريسة بين براثن بعض الأطباء الجشعين، وحتى يصبح العلاج سهلًا ميسورًا فيبادروا إليه، وفي ذلك ما فيه من تخفيض نسبة الجرائم، لأن البدن السليم وثيق الصلة في كثير من الأحيان بالنفوس السليمة والتصرفات المتزنة، وقد ألمحنا فيما سبق، أن بعض الانحرافات تنتج عن اختلال عضوي أو وظيفي Physiological في جسم الإنسان.

***

(ب) أما العامل الصناعي:

فقد يكون أحسن قليلًا من زميله الزراعي إذا اتخذنا ما يناله من أجر كأساس للمقارنة، لكن مستواه المعيشي، وحالته النفسية ومشاكله الاجتماعية قد لا تقل خطورة عن صاحبه..

والعمال -كما لاحظت- تنمو بينهم عادات وخصال قبيحة تترك أثرًا سيئًا في مجرى حياتهم ومستوى معيشتهم، ومستقبلهم



الاجتماعـي، فكثـيرون مـنهم يتنـاولون المخـدرات، ويـشربون الخمر، ويقارفون شتى المآثم، وإزاء هذه الأوبئة يصبح أجرهم -ولو كان مرتفعًا- أقل مما يريدون.

ولا شك أن بعض فئات العمال -الذين لهم نقابات تحميهم وترعى شئونهم- قد بلغوا منزلة لا بأس بها، لكن أولئك العمال الذين ينتقلون من ورشة إلى أخرى، ويتعطلون أيامًا ويشتغلون يومًا [1] ، ويعرضـون للطرد من آن لآخر، أولئك العمال الذين يحيون حياة قلقة غير مستقرة، ويصبحون نهبًا للأزمات المالية، قـد ينـدفعون إلى بعـض الأعـمال المخالفـة للقـانون اضـطرارًا.. فالنزيل (م.م) يروي لي أنه كان كهربائيًا، لكنه كثيرًا ما كان يجد نفسه في الشارع بلا مأوى ولا طعام، فتلقفه أيدي رفقاء السوء، ولقنوه قواعد «النشل»، وجعلوه يخوض التجارب العملية تحت سمعهم وبصرهم، ولما نجح أخذوا «يسرحونه» ثم يقاسمونه ما يحصل عليه من سرقات.. وفطن (م.م) إلى أنه أصبح شخصية يعتد بها، وأنه يمكنـه الاستقلال بنفسه، وفعـلًا تـمَّ لـه ما أراد، فأصبح من الفئة المرموقة في عالم النشل وبدلًا من أن «يسرح» مرة صباحًا وأخرى مساء، فقد اكتفى بالسرحة الصباحية، بل وأخذ يجمع حوله التلامذة ليدربهم ويلقنهم أسرار الصنعة التي سيأكلون منها العيش..

---

(1) يلاحظ أن هذه الدراسة قمنا بها قبل عام 1958.

وهناك «عفيفي» ذلك الشاب «الجزمجي» في إحدى المرات التي طرد فيها بسبب سوء تفاهم بينه وبين صاحب الورشة، خرج هائمًا على وجهه، ثم حط رحاله في حي «الباطنية» بالقاهرة قرب جبل المقطم، وحي الباطنية كما يقول عفيفي سوق رائجة للمخدرات، وكثيرون أولئك الذين يتجرون فيها، ولازم عفيفي أحد المعلمين الكبار حتى تعلم منه فن الاتجار في المخدرات.. وبرع.. لكنه وقع.. وحكم عليه بالسجن خمس سنوات حيث التقيت به في سجن القناطر الخيرية.. لكن هل ارتدع عفيفي؟؟؟ كلا..

والسبب في ذلك تلك الحياة القلقة غير المضمونة في الورش الصغيرة والمحلات التجارية التي تتصرف كيف تشاء، وتعبث بمستقبل العمال وبمصيرهم بطرق ملتوية، وتدابير خبيثة، حتى ولو لفقت للعامل المسكين تهمة السرقة، أو عدم الأمانة أو التبديد وما إلى ذلك..

***

فالبطالة عنصر خطير من عناصر إيجاد الجريمة والتمهيد لها..

ونحن هنا لا نناقش مشكلة البطالة تفصيلًا فلذلك مكان آخر لكن أردنا أن نلفت النظر -بإيجاز- إلى خطورة هذه المشكلة التي تغذي السجون بالإيراد الدائم، والضحايا الجدد..

وواضح جدًا أن الاهتمام بصغار العمال وتهيئة المستقبل المضمون لهم ورعايتهم خلقيًا ودينيًا واقتصاديًا وصحيًا من أوائل الأمور التي يجب الالتفات إليها قبل أن يصبحوا عامل شغب، ومثار فتنة، ودعاة جريمة في مجتمع خارج السجن [1] ..



هذا ما نراه خاصًا بأولئك المساكين الذين يجدون البيئة التي تساعدهم على اقتراف الجرائم وسنحاول الآن أن نناقش ونعالج الحالة الاقتصادية، لذلك الذي انزلق فعلًا إلى الجريمة، وقذف به إلى السجن:

حالة السجين الاقتصادية:

لقد أصبحنا أمام الأمر الواقع..

ودخل المواطن إلى السجن ليكفر عن جريمته التي دفعه إلى ارتكابها سوء حالته المعيشية في كثير من الأحيان..

وأسرته ما زالت خارج السجن..

أجل الأسرة التي ارتكب الجريمة من أجلها، ومشى في طريق الشوك والمغامرة والعار كي يحصل لها على القوت اللازم، والكساء الكافي. فالمشكلة إذن ما زالت قائمة.

والحالة ما زالت ملحة..

(1) لا تألو الدولة جهدًا الآن في معالجة هذه المشكلة في إخلاص وحزم.

والتحفظ على السجين داخل الأسوار ليس كل شيء..

إن زوجة السجين تريد أن تعيش، وكذلك أولاده وذووه، فإذا لم تتدارك الدولة هذا الوضع بالعلاج اللازم، والمشروعات النافعة، فقد تتحول الزوجة إلى لصة، أو إلى بائعة مخدرات، أو تبيع عرضها وشرفها قبل أن تموت جوعًا، وقد ينهج أولادها نهجها وإلا فالضياع والموت لهم.. إن العائل الفاسد الذي تأثر بوضعه الاقتصادي السيئ قد خلف لنا عائلة كاملة على وشك الفساد، وبهذا تتفاقم المشكلة، أو يتضاعف عدد المجرمين، ويتعرض المجتمع لمزيد من التهديد والاعتداء والاضطراب.. أليس كذلك؟؟

وعندما يخرج العائل من السجن، ويرى أن أسرته قد وصلت لهذا الدرك من الفساد والضياع فسوف يستأنف حياة الجريمة، ويستعذب أسلوبها وتصبح عادة متمكنة منه، ويصبح العمل الشريف في نظره عبئًا وعبئًا ثقيلًا مملًا..

لذلك نرى الاهتمام بنقطتين مهمتين، لم تهملهما بعض الدول الأجنبية، ورصدت لهما الكفاءات والأخصائيين الكافين، وتعاونت الهيئات الشعبية مع الأداة الحكومية في الاهتمام بهما، لكن في مصر ما زالت الخطوات وئيدة جدًا، وما زالت المجهودات المبذولة تحتاج إلى أضعاف مضاعفة:

أولهما: التأهيل المهني.

ثانيًا: إعانة أسرة النزيل.

وستعرض لكل منهما في سرعة وإيجاز.

التاهيل المهني:

والتأهيل المهني هو إحدى الطرق العلاجية المجدية التي تمخضت عنها الحركات الإصلاحية الحديثة، وهوعبارة عن اختيار حرفة مناسبة للنزيل كي يتقنها ويتلقى أصولها وقواعدها على أيدي أساتذة مدربين بحيث يستطيع النزيل أن يتخذها مصدر رزق له عند الإفراج عنه حتى لا يعود إلى حياة الجريمة مرة أخرى، ويشترط في هذه الحرفة التي تختار النزيل الشروط الآتية:

1- أن تتفق مع ميول النزيل واستعداده حتى يقبل عليها بشغف.

2- أن تكون مناسبة للبيئة التي سيعود إليها النزيل بعد الإفراج عنه بحيث يجد السوق الرائجة لتوزيع منتجاته..

3- يراعى في هذه المهنة الناحيتين: التأهيلية والإنتاجية..

فالتأهيل هو الإلمام بكل ما يحيط بالحرفة من فن ودراية وإقبال. والإنتاج يرجى من ورائه إعطاء أجر النزيل ثمنًا لما بذل من مجهود حتى يشعر بدافع يدفعه إلى العمل والإجادة، ولا شك أن هذا الأجر، سوف ينفق منه النزيل داخل السجن، وسوف يستطيع أن يرسل إلى عائلته - إن كان له عائلة- قدرًا

يقيم أودها، ويرفع من مستواها المعيشي، وسيبقى جزء ثالث في أمانات النزيل يستلمه عند الإفراج عنه بعد انتهاء المدة المقررة..

4- محاولة إعطاء النزيل مبلغًا -كرأس مال مناسب- من أجل قيام الحرفة التي كانت من نصيبه، كي يبدأ حياته العملية في المجتمع..

5- الاتصال بالمؤسسات الخارجية الإنتاجية كي تفسح للنزلاء المؤهلين أماكن بين عمالها والفنيين فيها، دون أن تكون «السابقة» أو مجرد دخوله السجن عائقًا لذلك..



ولقد ألمحنا آنفًا أن طريقة التصنيع في السجون تؤدى بإهمال وارتجال دون مراعاة لاستعداد النزيل، ودون بحث لمشكلته الفردية، وألمحنا أيضًا أن الصناعات المقامة في السجون محدودة العدد، ثم أنها لا تتناسب مع التأهيل المهني الذي نريد، وإذا ما بقي الوضع على هذه الصورة فسيظل داء الجريمة مستشريًا، وستظل البطالة تحرض أصحاب المستوى المعيشي المنخفض على الانحراف والهزء بالقانون..

صحيح أن التأهيل المهني قد أصبح أمرًا معترفًا به، وبعض السجون المصرية قد حاولت تجربته، لكن في نطاق ضيق جدًا بحيث لا يزيد على 4٪ من عدد النزلاء، ورغم هذه النسبة الضئيلة فإن أغلب هؤلاء الـ 4٪ لم يتعلموا المهنة لأول مرة في

السجن فهي مهنتهم في الخارج، ولم أجد من المؤهلين الجدد في سجن القاهرة غير بعض الذين يتدربون على الآلة الكاتبة، وعدد قليل في الحرف الأخرى..

فضلًا عن أن مسألة التصنيع لا تخضع للاختبارات الطبية والنفسية والاجتماعية، بل هي كما قلنا تقوم على الارتجال والحظ لا غير..



إن التأهيل المهني إذا ما اتسع نطاقه وروعيت فيه الأساليب العلمية الحديثة الدقيقة، وروعي فيه حق النزيل في الأجر وفي التعويض إذا ما أصيب أثناء العمل، وروعي فيه ضمان توزيع المنتجات، فإن ذلك سوف يكون خطوة موفقة في ميدان كفاح الجريمة والتخفيف من أضرارها، وفي نفس الوقت سيكون فتح باب للرزق الشريف يلجه النزيل فيجد لديه العصمة من الزلل.

وماذا يريد النزيل إذا ما ارتفع مستوى معيشته، ووجد ضروريات الحياة مكفولة لأسرته؟؟؟

إعانة أسرة النزيل:

إن الوضع الحرج الذي وضعت فيه أسرة النزيل بعد أن سجن عائلها، والمستقبل الغامض الذي ينتظرها، ونظرة المجتمع إليها نظرة خاصة، كل هذه عوامل تسبب المتاعب النفسية للسجين، والارتباك لأسرته، ومن هنا تتعرض صلة

المسجون وأسرته بالمجتمع لمشاعر منحرفة ضارة، لن نجني من ورائها الخير على أية حال..

لهذا وجب على الدولة أن ترعى هؤلاء المساكين الذين لم يجرموا وإنما الذي أجرم عائلهم، ووجب عليها أن تكفل لهم الحياة الكريمة لدرجة معقولة، ولا شك أن ذلك سوف يرد إلى النزيل ثقته بالمجتمع. وثقته بالدولة التي يحيا فيها، وثقته بالقانون الذي ناصبه العداء.

إن هذا موضوع مقرر وبديهي تفرضه الإنسانية وروابطها النبيلة، ويفرضه ضمان صلاح المجتمع، واستمتاعه بالهدوء والسلام.

سألت النزيل (م.أ) وهو من معتادي الإجرام.

- «اخدت كم سنة؟؟».

- «ستة أشغال..»

- «أنت متزوج ولّا لأ؟؟»

- «متزوج وعندي ولد».

- «عندك أملاك..»

- «ولا مليم.. يا مولاي كما خلقتني».

- «طيب.. ومراتك هتروح فين دي الوقت؟»



فقال في عدم اكتراث مصطنع، وأنا أعلم أن قلبه يتفطر حزنًا لما رأيته في عينيه من دموع حائرة، واختلاجات في شفته السفلى، وتلاحق في أنفاسه.. قال:

- «وأنا هعمل لها إيه..؟ .. تروح بيت أبوها» ومضى..

ووقفت أنظر إلى جسمه الهزيل الضامر، وخطواته المتلعثمة، لكنه التفت إليّ فجأة وقال:

- «إن شاء الله بعد ما اطلع من الحبسة دي أبقى أجيلك مصر عشان تشوف لي شغله ناكل منها عيش..»

إنه رغم أنه من معتادي الإجرام، ورغم أنه سرق عشرات إن لم يكن مئات المرات ما زال فيه بقية من خير، ووازع من ضمير وأمل في العيش الشريف الهادئ، فواجب الدولة أن تعالج مثل هذا البائس علاجًا مجديًا، وواجب عليها ان ترعى أسرته وتحميها من الضياع والانهيار الذي ينتظرها.

إن ذلك كله أمانه في عنق الدولة، والتفريط فيه جريمة لا تغتفر..

معيشة المجرم بعد الإفراج:

إن المجرم سوف يواجه المجتمع بعد خروجه من السجن، ويجب على الدولة أن تكون بجواره وهو يخطو إلى عالم الحرية، إنها سوف تعطيه الإعانات المالية اللازمة، وسترشده إلى أحسن الطرق لاستغلال ما يملك، وستشركه في التفكير، وفي تقرير

مـصيره حتـى يـشعر بشخـصيته وبكيانـه، وستـسهل لـه سـبل الاتـصال بـالمجتمع والانـدماج فيـه، وسـتحاول أن تعاونـه في مواصلة مهنته التي تعلمها في السجن كي تؤتي ثمارها.

إن عـين الدولـة يجـب ألا تنام وإلا فـستنتكس الحالـة ويعـود المجـرم إلى الـوراء.. إلى مـشاكله القديمـة والأزمـات التـي تأخـذ بخناقه، ويبدأ في مزاولة حياة الجريمة من جديد، فينجو من يد القانون مرة أو أكثر، ثـم يقع في قبضة المجتمع من جديد مجرمًا آثمًا.. لكن ما لنا نقول دائمًا.. الدولة.. الدولة.. الدولة.

إن نـشاط الأفـراد والجمعيـات الأهليـة، والمجهـودات التـي تقـوم بهـا المؤسـسات الخيريـة لهـا دورهـا هـي الأخـرى، فإلقـاء العبء على الدولة كلية أمر فيه كثير من الإرهاق والظلم، ثم إن قيـام الهيئـات الأهليـة بمثـل هـذه الأعـمال الجليلـة أمـر يؤكـد الصلات الطيبة، والمشاعر المتماثلة، والتجاوب المتبادل بين شتى أفراد المجتمع، وفي ذلك ما فيه من نفع وإصلاح وتقويم..



هـذا مـا ارتأينـاه بالنـسبة للمـواطن الموجـود خـارج الـسجن والمعرض للزلل ومقارفة الجريمة..

وبالنسبة للمواطن إذا ما أجرم وقذف به خلف الأسوار..

وبالنسبة لذلك المواطن وقد خرج إلى المجتمع من جديد..

فهل بلغنا ما نهدف إليه في هذه السطور الموجزة..؟؟!



الفصل السّادسْ
تصحِيح القيَم الخَاطِئة

تعرضنا في الفصل الأول للقيم الخاصة التي يؤمن بها نزلاء السجون ويضعونها موضع التبجيل والاحترام، بالرغم من ثبوت فسادها، وتأكيد أضرارها البالغة، ولا شك أن ترك هذه القيم على ما هي عليه مدعاة لمزيد من الفساد، وتمهيد لجديد من الجرائم والانحرافات، لهذا وجب أن نتناول هذه القيم الضارة بالبحث والتمحيص حتى نفهم بدقة دوافعها ودقائقها، ودلائلها النفسية حتى نستطيع علاجها علاجًا حاسمًا، وهذا هو واجب الباحثين الاجتماعيين، والأخصائيين النفسيين.

لهذا كان من الواجب أن تستعمل كل أساليب التوجيه والإرشاد المختلفة في حملات جادة منظمة تكشف القناع عن فساد هذه القيم، ولا يكفي ذلك فحسب، بل يجب أن تملأ قلوب النزلاء بقيم أخرى أسمى وأعظم.

إن المعرفة كما يقول اللواء محرم عثمان: «هي أول خطوة في طريقنا الطويل إلى الغاية التي ننشدها، وعندما يتهيأ لنا من المعرفة قدر يزيد عقولنا نورًا، وقلوبنا ونفوسنا حنانًا، اندفعنا غير مدفوعين، وسرنا غير مسيرين، نحو طريق مرسوم، وهدف معلوم لا تختلف فيه الآراء، ولا تتعارض النظرات».

وأول مشكلة نريد علاجها هنا هي المشكلة الجنسية..

علاج المشكلة الجنسية:

من المؤسف أن علاج الرسميين ورجال السجن لهذه المشكلة ما زال علاجها غير موفق، لأنه لا يقصد الداء مباشرة

ويجتثه من جذوره، بل يحاول أن يخفف من حدته وحدَّة أعراضه قليلًا، وينسى الجميع أن المشكلة ما زالت كما هي، وأن السجين ما زالت رغباته وغرائزه تلح عليه، وأن البيئة السجنية، وظروف السجن والمكان والحاجة ما زالت تعمل عملها، ويزعمون أن الألعاب الرياضية وما فيها من منافسات ترفع معنوية النزيل سوف تتسامى بروحه، وتتصاعد بغرائزه وأحاسيسه الجنسية، فيبذل طاقته في ميدان بريء، ويتجنب الخوض في الآثام.

أهذا كلام يقال؟؟؟

هناك أحد النزلاء وهو رئيس إحدى فرق الرياضة في سجن ما، ولا يكاد يترك الملعب إلا في فترات قليلة، ومع ذلك لم يكن هذا يمنعه من السقوط والتردي.. وغيره كثيرون.

ثم هؤلاء الذين يقضون وقتهم في الجبل يكدحون ويعرقون في ليمان أبي زعبل وطره، إن مرارة الحياة، وقسوة العمل لم تصرفهما عن الانحراف..

وحقيقة مرة أخرى أدركتها..!!!

إن سجن مصر مثلًا لا يسمح بمزاولة الرياضة فعلًا إلا لعدد ضئيل وأعني بهذا العدد الضئيل الفرق الرياضية الرسمية فقط، وهم لا يقاربون الخمسة والعشرين فردًا بأي حال من الأحوال، وكذلك الحال في باقي السجون، مع قليل من الاختلاف البسيط.

ومع ذلك نزعم بأن الرياضة سوف تتسامى بالغرائز، وتحميها من الشذوذ. ولوسلمنا جدلًا بصدق هذه النظرية وجدواها -وإن كان هذا بعيد التحقيق- فإن الرياضة لا تشمل الغالبية العظمى من نزلاء السجون أولئك الذين يقضون يومهم بين الزنزانة والورش لا غير.

إن الحل الذي أقترحه ليس حلًا جديدًا، لأن بعض الدول قد سبقتنا إليه، ونجحت التجربة لديهم نجاحًا طيبًا، وهذا الحل هو إتاحة الفرصة للنزيل كي يتصل اتصالًا جنسيًا طبيعيًا في حدود الشرع والقانون، سيقول قوم إن هذا يتنافى مع تقاليدنا الشرقية، ولكني أقول لهم: وهل الشذوذ الجنسي يتفق مع تقاليدنا؟؟ وهل إشباع الغريزة الجنسية عن طريق حلال يدعو للقلق والعار؟؟؟

وسيقول آخرون، قد يؤدي هذا إلى مشكلات عائلية، لأن الزوجة ستكون طليقة في الخارج، وقد تراودها نفسها بشيء ما، فيكون ذلك مدعاة لفصم عرى الرباط العائلي المقدس.. ونحن نقول بدورنا إن هذه مشكلة أخرى، فالمرأة التي تخون في فترة وجود زوجها في السجن، لن تعدم الوسائل لخيانته وهو خارج السجن، وهذا أمر يتعلق بالأخلاق العامة ولا يقف حائلًا دون تحقيق ما ندعو إليه..

وسيقول فريق ثالث: إن الحل الذي تقترحه قد يتناسب مع المتزوجين، فيكف تحل مشكلة غير المتزوجين من الشباب الموجودين داخل السجن؟؟ والأمر هين يسير، إن هؤلاء

مشكلتهم لم تنشأ داخل السجن فحسب، بل إنها من الخارج، والحل يتناول أزمة الزواج عامة في الوطن وليس في السجون وحدها، ثم ما المانع في أن يسمح للسجين القادر ذي اللياقة البدنية، والمستوى المعيشي الميسور، والذي يقضي فترة طويلة في السجن، ما المانع في أن يسمح له بالزواج، ثم يطبق عليه نظام المتزوجين المسجونين؟؟

بأي حق يعيش عشرين عامًا خلف القضبان أو دون ذلك بقليل، محرومًا من حقه في مزاولة نشاطه الجنسي؟؟؟

ولكم يدهشني أن يقول أحد الأساتذة الذين تعرضوا لمعالجة هذه المشكلة «إن عدد المسجونين قليل، ولا بأس من أن يحرموا من النشاط الجنسي، بدلًا من السماح لهم به بطريقة قد تؤدي إلى الارتباك ومخالفة العرف والتقاليد الاجتماعية..».

إن كل فرد كفيل بأن ينال حقه، صغر هذا الفرد أم كبر، أجرم أم لم يجرم، فهناك حقوق إنسانية طبيعية، وحرمان الإنسان منها ظلم فادح، وانتهاك لآدميته، وإرهاق لنفسيته وغرائزه..

أما الطريقة التي يسمح بها للزوج كي يلتقي مع زوجته وهل هذا اللقاء يكون في غرف خاصة داخل السجن، أو زيارات محدودة خارج السجن في بيت الزوجية، وتحديد مدة هذه اللقاءات، والتحفظات اللازمة إزاءها، فإن هذه الأشياء كلها أمور فرعية من السهل بحثها وترتيبها بحيث تتفق مع ظروفنا

الخاصة داخل السجن وخارجه، لكن المهم أولًا هو الموافقة على الحل من حيث المبدأ.

إننا بصدد تحويل السجون إلى منشآت اجتماعية وعلاجية، وإصلاح النزيل إصلاحًا شاملًا، وتجاهل الناحية الجنسية -وهي لها أكبر الأثر في سلوكنا في الحياة كما يؤكد فرويد- أمر لا يتفق تمامًا ما نهدف إليه من غايات كبيرة..

وإلى أن يحين تحقيق هذا الحل، نشير ببعض المقترحات التي تتناول علاج هذه المشكلة الخطيرة داخل السجون في الوقت الحالي:

1- تعميم الرياضة وتنويعها وعدم قصرها على الفرق الرسمية فقط.

2- فرض رقابة شديدة على أولئك المجرمين الخطرين الذين يستغلون صغار السن بالتهديد، أو يغرونهم إغراءً ماليًا -لفقرهم- حتى يوقعوهم في شرك الشذوذ..

3- التغلب على مشكلة ضيق السجون وازدحامها..

4- وضع المشكوك في أمرهم في الحبس الانفرادي مع تجنب ما يسببه هذا الحبس من آثار نفسية وصحية، وذلك بالاكتفاء بفترة الليل فقط، ويا حبذا لو تغلب النزيل المنفرد على مشكلة الفراغ بالقراءة أو مزاولة بعض الأعمال والهوايات كما في بعض السجون الأوروبية.

5- في أمريكا منشآت خاصة للمجرمين المصابين بالانحراف الجنسي والأمراض النفسية و.. و.. الخ.. فلم لا ننهج هذا المنهج في بلادنا؟.

6- توضيح خطورة هذا الشذوذ وشرح أضراره الخلقية والجسدية والاجتماعية، ومدى منافاته للدين والرجولة بطرق شتى حتى يفهم النزلاء -وغير النزلاء- حقيقته الضارة، ومفاسده المشينة.

7- علاج من يثبت فعلًا أن شذوذهم راجع فعلًا إلى اضطراب في الغدد المختلفة، أو إلى نقص وظيفي في أحد الأعضاء المختصة، والحقيقة إنني لم أجد في السجون المصرية حالة واحدة عولجت من هذا الداء، وذلك راجع لعدم الاهتمام بالبحث عن هذه الحالات، وإدراك مدى خطورتها..

8- علاج مشكلة التشرد في خارج السجن، لأن مجتمع المتشردين مجتمع له مفاسده ومباذلة التي قد تقترب في طبيعتها من مفاسد السجون ومباذلها..

العلاقة بين النزيل والإداريين:

قلنا في بداية بحثنا أن العلاقة بين المسجون وسجانه تقوم على عدم الثقة والعداء والتربص للانتقام، مما جعل النزلاء يؤمنون بأن «مخالفة اللائحة واجب» ويعتبرون ذلك إحدى القيم المتعارف عليها داخل السجون..

وقلنا أيضًا إن ذلك يرجع فيما يبدو إلى معاملة كثير من السجانة للنزيل معاملة ملؤها الاحتقار والقسوة، وراجع أيضًا إلى بعض النظم الضارة المتبعة في السجون، وكذلك مشكلة الممنوعات التي يتحايل السجين بطرق شتى، ووسائل عدة كي يحصل عليها..

وعلاجًا لهذا «المبدأ» الضار الذي يعتنقه النزلاء نرى ما يأتي:

1- العمل على إفهام النزيل أن من معه من الإداريين لا يكنون له العداء والكراهية، وإنما هم هنا لحمايته والسهر على راحته، وتهيئة العناية الصحية والغذائية والترفيهية اللازمة له في حدود اللوائح والقانون. ومجرد إفهام النزيل ذلك لا يكفي، إذ لا بد أن يتفق الكلام الذي نقوله للنزيل مع واقع الحياة في السجن، فيرى فعلًا أن السجانة والإداريين لا يرغبون إلا في راحته وعلاجه وتهيئة الجو الطيب المناسب له.

2- إحلال المدنيين تدريجيًا محل العسكريين في إدارة السجون كما أوصى مؤتمر جنيف بأغلبية الأعضاء، حتى لا تصطدم المشروعات الاجتماعية التي ينظمها الأخصائي الاجتماعي مع النظم الإدارية البحتة التي قد لا تقيم اعتبارًا للآراء الاجتماعية والنفسية..

3- تقليل عدد المواد الممنوعة إلى أقصى درجة ممكنة حتى لا يلجأ السجين إلى الوسائل غير المشروعة للحصول عليها،

فيصطدم باللائحة، ويتعود على مناصبة القانون العداء، سواء في الداخل أو الخارج..

4- خلق حرمة وقدسية للقانون واللوائح في نفوس النزلاء، حتى يتعودوا على احترامه، ويتحرجوا من مخالفته..

5- الدروس الدينية، والثقافات العامة، والحفلات الترفيهية مما يضيق الشقة بين النزلاء ورؤسائهم، ويقلل من عدد الحوادث المحلية..

معالجة التمارض وفن اصطناع العاهات:

إن مثل هذا العمل ينطوي على الكذب والرياء والهروب من تحمل المسئوليات، كما أنه يحمل في ثناياه صورة لنفس صاحبه المعقدة المضطربة، ولقد سردنا الأسباب التي جعلت النزلاء يؤمنون بأن هذا التمارض واصطناع العاهات فن دقيق لا عيب فيه ولا حرج، ولوراعينا اللياقة البدنية والنفسية والميول الشخصية في إسناد العمل للنزلاء، ولوأعطيناهم أجورًا على هذا العمل، وساعدناهم على التأهيل المهني الذي ينفعهم خارج السجن، لو فعلنا ذلك لما لجأ السجين إلى تلك الطرق الملتوية للفرار من العمل.

ولورددنا للنزيل اعتباره، وعاملناه كإنسان ذي شخصية يحس ويشعر ويريد أن يثبت وجوده، لما عمد إلى الوسائل الشائنة في تأكيد شخصيته، ولفت النظر إليه..



وإذا ما قضينا قضاء تامًا على شتى ألوان القسوة في المعاملة، ووسائل الانتقام والتشفي فإن السجين لن يفكر في أن يصيب نفسه بعاهات وجراح ينسبها إلى سجانه..

السجن والبطولة:

ليس السجن مفخرة وبطولة في أغلب الأحيان، هذا ما يجب أن نؤكده للنزلاء، حتى لا يعتنقوا الفكرة الخاطئة التي تقول «السجن للرجالة» فالسجن لا يكون إلا للسارقين والسالبين حقوق غيرهم..

والسجن من نصيب القتلة والسفاكين..

والسجن جزاء كل من تسول له نفسه بأن يرتشي أو ينصب أو يخون الأمانة دون وازع من دين أو ضمير..

والسجن عقاب العابثين بحرمة القانون، المتعرضين لقداسته بالمخالفة والعصيان والاستخفاف..

فالسجن -باختصار- مكان يحشد فيه أعداء المجتمع للإصلاح والعلاج وليس مكانًا للأبطال والرجال الفاضلين، لأن البطولة والفضيلة شيء آخر غير السرقة والنصب والقتل والتزوير.. إلخ

فإذا فهم النزيل ذلك وآمن به إيمانًا عميقًا، فإن نظرته إلى نفسه سوف تتغير، وبالتالي ستتغير نظرته إلى السجن أيضًا،

ولعله يلتمس العذر للمجتمع الذي عاقبه هذه العقاب. ووضعه في هذا المكان ذي الأسوار والقيم الخاصة..

فليس كل من في السجن «مظاليم» كما يزعمون إذن، بل أغلب من في السجون هم الظالمون.. الظالمون لمجتمعهم، لأنهم جعلوا من الثأر فضيلة وجعلوا من إدمان المخدرات «فهلوة» ورجولة وجعلوا من التعصب الإقليمي أمرًا واجبًا.. وسموا الصدق وأداء الشهادة «خبصًا»..

واستساغوا حياة الدس والوقيعة والشائعات، واعتبروا المساواة في الظلم عدلًا..

أجل، إن قيمهم هي التي انحرفت، ولكن يجب ألا ننسى الظروف التي نشأوا فيها، والمؤثرات التي أثرت في حياتهم، فشكلت معتقداتهم وسلوكهم.. ولا شك أن كل مشكلة من هذه المشاكل كالثأر.. والمخدرات.. والعصبية.. تحتاج إلى دراسة خاصة وبحث دقيق، لكن استنارة الأذهان بوجه عام، والكشف عن الخداع والبهتان في هذه القيم، والتنفير منها، وملاحقة الساقطين في هذه الأخطاء سواء في المجتمع الخارجي أو في مجتمع السجن، كل هذا قد يخفف من حدة انحرافهم، ويصلح من فساد أفكارهم التي أصبحت بمرور الزمن، وحكم العادة شيئًا راسخًا في الأذهان ليس من السهل اقتلاعه..



هذا ويجب ألا ننسى أن كثيرًا من النزلاء ما زال فيهم بقية من خير واستعداد للعودة إلى الحياة الطبيعية السليمة، إذ لا يعقل أبدًا أن تمسخ كل القيم والفضائل في نفس أي إنسان مسخًا تامًا، بل إن هذه الخامات قد تصبح في يوم من الأيام مصدرًا للوطنية الصادقة والإنتاج الضخم، والعمل المثمر المفيد..

***

وكلمة أخيرة في هذا الفصل..

هل تعتقد أيها القارئ أن هذا العمل الضخم، وهذه المسئولية الكبرى من السهل القيام بها، والمشرفون على سجوننا على ما هم عليه من عسكرية جافة، ونقص في التعليم والتثقيف، وارتجال في شتى مرافق السجن كالوعظ والتصنيع والتعليم ونمط المعيشة، وكذلك المعاملة التي يلقاها النزيل داخل السجن، ثم في الخارج عندما يواجه المجتمع الذي يناصبه العداء؟؟

إن المسئولية ليست هينة ميسورة على ما يبدو..

***

الفصل السّابع
التعْليم في السجون

التعليم بالنسبة للمجرم أمر في غاية الأهمية، هذه حقيقة بديهية لا يختلف فيها اثنان، وإن كنا ندرك أن التعليم وحده لا يكفي، لهذا تكلمنا عن ضرورة الدين وخلقه للوازع الخلقي، وتكلمنا عن التأهيل المهني وأثره في الكسب الشريف، وتكلمنا عن حسن معاملة السجين باعتباره آدميًا له مشاعر وأحاسيس، وتكلمنا عن تصحيح القيم وما يجره ذلك على المجتمع من فوائد جليلة..

إذن فالتعليم وحده ليس بكافٍ، وإنما يجب علينا أن نضع هذه العناصر المختلفة مع بعضها في تناسب وتناسق ومقادير معقولة حتى نستطيع الحصول على «مزيج» صحيح يكون فيه العلاج الشافي.

والتعليم -كما أعتقد- في السجون، يجب أن ينقسم إلى ثلاث شعب، كل شعبة لها ضرورتها ومطالبها الخاصة، ولها تأثيرها الفعال على هذه المجتمع، وسنتناول كل قسم من هذه الأقسام بشيء من الإيجاز.

هذه الأقسام هي:

(1) محو الأمية..

(2) التعليم المدرسي..

(3) التثقيف العام..

(1) محو الأمية:

لوحظ في الإحصائيات أن عددًا كبيرًا من النزلاء لا يعرف القراءة والكتابة، وهذه الطائفة من الأميين، والتي تضم أغلبية كبيرة من النزلاء لها علينا حق مقدس ليس من الإنصاف التغاضي عنه، كما أنه ليس من اللائق أن تؤدي لها هذا الحق بصورة مبتورة شوهاء، لأن ذلك قد يأتي بعكس المطلوب، فيذهب جهادنا هباء، ولا نجني شيئًا يذكر..

والسجون فعلًا فيها فصول لمحو الأمية، وهذه الفصول تشمل من لا يلمون بالقراءة والكتابة، وتشمل أيضًا من عندهم بعض المبادئ فيهما، وهؤلاء لهم فصول أرقى قليلًا غير الفصول الأولى الخاصة بالأميين، والتدريس بصفة عامة موكول إلى طائفة من المدرسين ليس لهم أية مؤهلات على الإطلاق سوى حفظ القرآن، تمامًا مثل واعظ سجن أسيوط، بل إن واعظ سجن أسيوط يقوم بالتدريس إلى جانب الوعظ والإرشاد، ومثل هذا المدرس غير المؤهل، يدرس لهم مبادئ القراءة والكتابة، ومبادئ علم الحساب، وقليلًا من أمور الدين مثل الطهارة والوضوء والتيمم وما إلى ذلك..

فماذا كانت نتيجة هذه السياسة التعليمية في محو الأمية؟؟؟

دعونا من النتائج الرسمية التي تعلنها الهيئة المشرفة على التعليم في السجون..

ودعونا من ألوان الدعاية..

دعونـا مـن كـل هـذا، ولنسأل النزيـل عبـد الـرحيم المحكـوم عليه بالـسجن لمـدة خمس سنوات والـذي سـوف يفـرج عنـه بعـد شهر..

إن عبد الرحيم يكتب اسمه بصعوبة جدًا، ومن الصعب أن يقرأ كلمة صحيحة حتى الآن، أما معلوماته الدينية فلا تكاد تخرج عما تعلمه من أبويه خارج السجن، وعبد الرحيم معذور في ذلك كل العذر، هو «ريّس النول رقم 6» في ورشة النسيج، ووقته كله يكاد يكفي للانتهاء من المقطوعية المقررة عليه، ولهذا فهويتهرب من الدروس حتى لا يقصر في المقطوعية في أغلب الأحيان، ولا يذهب إلى مدرسة السجن إلا خوفًا من التأديب والتهديد بشتى ألوان العقاب.

وإذا ما ذهبنا إلى فصل الدراسة وجدنا النزلاء مكدسين هناك كل أربعة على «دكة» لا تتسع لأكثر من اثنين، أو يتلاصقون على «دكة» طويلة بصورة منفرة، وكثيرًا ما تعثر على مدرس قد يقول كلمة أو كلمتين، أو أسطرًا قليلة، أو بعض الأرقام، ثم يخرج عن الموضوع أو يلوذ بصمت مطبق بلا سبب معقول حتى تنتهي الحصة.. لهذا لا تعجب إذا زرت فصل الدراسة ووجدت النزلاء يتلفتون هنا وهناك ويحولون نظرهم عن السبورة وعن الدرس، ولا يملأهم إلا شعور واحد هو أن هم يقضون فترة من الراحة بعيدًا عن ضجة الأنوال والغبار المثار منها، كما أنهم

يجلسون هذه الجلسة لأن الإدارة تصر على ذلك. ولا تحاول أن تراعي ظروف العمل ولا كيف تتلاءم مع ظروف طلب العلم.

وهناك بعض المدرسين الذين يختارون من النزلاء أنفسهم بعد أن يعقد لهم امتحان مبسط، وهم في أغلب الأحيان لا يزيدون في مؤهلاتهم عن المدرسين الرسميين الذين يجمعون بين الوعظ والتدريس..

إن محوا الأمية إذن لا يؤدى على الوجه الصحيح، لأن هذا النوع من التعليم تقوم دونه بعض المشاكل المهمة التي تحتاج إلى حل حاسم وهذه المشاكل هي:

* تأهيل المدرسين وإعدادهم إعدادًا كافيًا.. [1]

* مناسبة المكان وما يتفق مع جدية التدريس..

* إيجاد الدافع القوي الذي يحرض النزلاء على الإقبال على هذا النوع من التعليم.

* تعديل برنامج التعليم.

* تهيئة الوقت الكافي للتعليم وعدم ترك الفرصة لعوامل أخرى تعرقل النظام التعليمي..

أما مسألة تأهيل المدرسين تأهيلًا مناسبًا، فهذا يرجع إلى أننا نضع بين يدي المدرس بشرية اتسمت بالإجرام والجهل.

---

(1) هناك بعض المدرسين المؤهلين تأهيلًا متوسطًا.

وعلاج الإجرام والجهل ليس بالأمر الهين السهل الذي يستطيعه إنسان لا يزيد عن النزلاء إلا في حفظ القرآن واستمتاعه بحريته وملبسه الذي يختلف عن ملبسهم، لأن الأمر لن يقف عند حد تعليمهم الحروف الأبجدية، والنطق ببعض الكلمات.

ولن يتأتى ذلك إلا إذا اعتبرنا محوا الأمية جزء من التعليم الابتدائي التابع لوزارة التربية والتعليم، حتى تستمد الفصول الموجودة في السجون مدرسيها وموادها من الوزارة رأسًا، وحتى تجد عائدًا جديًّا لإشرافها، وهذا لا يكفي أيضًا، بل يجب أن يلم المدرس بشيء من الثقافة العامة -ولو لدرجة بسيطة- التي تتصل بالجريمة وعلم النفس والاجتماع..

ولكي يشعر النزيل بجدية الأمر، ويحس بحرص الدولة على كرامته واحترام آدميته، يجب أن يكون فصل التدريس مناسبًا، وعدد النزلاء (الطلبة) يجب ألا يزيد على العدد المحدد للفصل، أما هذا التكديس والتراكم في الفصول فيوحي بالإهمال وعدم الاهتمام..

ويجب أيضًا أن نوجد لدى النزلاء الدافع القوي الذي يدفعهم إلى الإقبال على التعليم، فما المانع مثلًا من أن ننقص مدة العقوبة عن المقدار المحدذ إذا ما استطاع النزيل أن يحصل قدرًا معينًا من البرنامج المدرسي، أو إذا استطاع أن ينجح في امتحان خاص يوضع لهذا الغرض؟ ولماذا لا نخفف أعباء العمل عن

كل نزيل في قسم محو الأمية ما دام مواظبًا على الحضور جادًا في دراسته؟؟ ولماذا لا نعطي النزيل شهادات تشبه إلى حد كبير الشهادات التي ينالها الطلبة في المرحلة الأولى في الخارج، ولم لا نوزع على النزلاء الناجحين جوائز مالية مناسبة، ونوجد بينهم نوعًا من التنافس المفيد؟؟ فهل هذا يكون كثيرًا؟؟ أبدًا.. إن النتيجة التي سيجنيها النزيل من وراء ذلك ستكون عظيمة ولا شك، والفائدة التي ستعود على المجتمع ستكون هي الأخرى ذات أثر..

أما برنامج التعليم فهو الآخر يحتاج إلى مزيد من التنقيح والتنسيق، فالنزيل يجب أن يعرف شيئًا عن تاريخ بلاده وجغرافيتها، يجب أن يعلم شيئًا عن العالم الذي يحيط به، ذلك العالم بما فيه من حضارة وتقدم وعرفان، ويجب ألا تقتصر دروس الدين على التيمم والوضوء، فهناك الكثير من أمور الدين الخلقية، وهناك السيرة النبوية وقصص الصالحين والمصلحين قديمًا وحديثًا، وهناك أيضًا الدروس الصحية التي يجب أن تلقن بطريقة سهلة و.. و.. إلخ، لأن النزيل إذا ما اتسعت آفاقه وتغذى بشتى فنون العلم المختلفة، نظر إلى الحياة بعين جديدة، فيجد فيها أشياء لم يكن يعرفها من قبل، فتأسره هذه الجدة، وتستهويه تلك الأسرار، فتتغير لديه كثير من القيم والمفاهيم، وبالطبع سيؤثر ذلك في مستقبله، ومستقبل أبنائه.



وما دامت النظرة الجديدة للمسجون تقوم على أساس أنها منشآت اجتماعية الغرض منها علاج الجريمة، وتأهيل النزيل لمستقبل أفضل، وحياة أسعد، فالواجب إذن أن نهيئ له الوقت الكافي للتعليم، لأن الوقت المتاح له فعلًا وقت ضيق لا يتسع لكل ما نريده له من برامج، فضلًا عن أن ضغط العمل عليه، وقسوة المقطوعية يجعلانه في قلق دائم، ويدفعانه للتهرب من هذه الفرصة الضيقة، التي لا تحتمل هروبًا وقلقًا..



هذا ما نراه بالنسبة لمحو الأمية في السجون حتى تنهض بهذه الطائفة البائسة التي دعتها قسوة الظروف، ومرارة الحرمان، ووضع المجتمع، للانحراف والجهل ومعاداة النظام الاجتماعي القائم..

فهل سنجد آذانًا مصغية لهذه المقترحات المعقولة التي لا تكلفنا كثيرًا رغم أن فائدتها ستكون عظيمة جدًا..؟؟

(2) التعليم المدرسي:

ونقصد به ذلك التعليم الذي يشمل المراحل الأربعة خارج السجن وهي التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي لأولئك النزلاء الذين كانوا في إحدى الجرائم ثم يحكم عليه بالسجن لسنوات متفاوته..

ولقد دلت الإحصائيات الرسمية أن في السجون جامعيين وأزهريين وموظفين ذوي ثقافات ودرجات علمية متفاوتة، وطلبه في إعدادي وثانوي. وهؤلاء جميعًا لهم حقوق ليس من العدل تجاهلها وصرف النظر عنها..

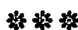
لقد تعرضت نظم الامتحانات في السجون خلال الأربعة عشر عامًا الماضية لكثير من الاضطرابات والهزات، فنرى الدولة تسمح لهم بالامتحان في ذلك العام، ثم توقفه مرة ثانية في عام آخر، والنزيل ذو الاستعداد العلمي يقف حائرًا بين شتى اللوائح، ومختلف القرارات والأوامر، ويظل هكذا حتى تضيع عليه الفرصة، فيحس أن المجتمع ما زال يعرقل جهوده، ويقف في طريق إصلاحه، فتصطخب في نفسه المشاعر المتناقضة..

إن هناك شبه إجماع على أن النزيل يجب أن يستمتع بحق الامتحان، ولائحة السجون قد أكدت ذلك في بنودها، ورغم ذلك فإن العراقيل ما زالت قائمة، إننا نتمنى للنزيل أن يرتقي درجة أو درجات في مضمار الإصلاح، ولا شك أن التقدم العلمي أحد العوامل الفعالة في إصلاحه واستقامة أفكاره ونفسيته، هذا إذا كنا مؤمنين فعلًا بالنظرية الإصلاحية الحديثة، وبأن السجون منشآت اجتماعية، ودار للعلاج والتقويم، ومكان تشع منه أضواء الأمل والثقة في المستقبل..

ولقد نصت لائحة السجون لعام 1956 على السماح للمسجونين بالامتحانات وتهيئة الظروف المناسبة لهم كي

يستعدوا للمذاكرة والتحصيل على أن يكون الامتحان داخل السجن، حفظًا لكرامة النزيل -كما تقول اللائحة- ومعنى ذلك أن نعقد لجنة امتحان تابعة لوزارة التربية والتعليم أو الجامعة داخل السجن كي يؤدي الطالب الامتحان أمامها.. فماذا كانت نتيجة ذلك؟؟؟

لقد اختلفت الكليات الجامعية والأزهر ووزارة التربية والتعليم في الاستجابة لهذا القرار، فكلية التجارة في جامعة عين شمس مثلًا توافق. أما «تجارة» القاهرة والإسكندرية فترفضان، وبعض كليات الأزهر تقبل، والمعاهد والكليات الأخرى لا تقبل، وهكذا ظل الأمر مائعًا مختلفًا عليه حتى مر العام دون أن يؤدي نزيل واحد امتحانه في أي مدرسة أو معهد أو كلية.



لقد كان من الواجب أن تؤلف لجنة مشتركة من المهيمنين على شئون التعليم والأمن والسجون حتى تضع لائحة إيجابية فعالة بالنسبة للامتحانات تتفق مع الواقع، وتستجيب لشتى ظروف الهيئات الثلاث المشار إليها، فينال المسجون حقه في الامتحان بالطريقة المناسبة، وكفى ما ضاع عليه من فرص كثيرة في هذا المجال المهم.

ونقطة أخرى هي «تأدية الامتحان داخل السجن حفظًا لكرامة النزيل» ما معنى هذه العبارة التي لا تحمل في طياتها ما

يقنع؟ إن النزيل يخرج لحضور الجلسات، ويخرج للعلاج في المستشفيات الخارجية، وفي بعض البلاد الأجنبية يخرج في زيارات قصيرة لأهل بيته، وقد يخرج إلى أماكن خارج السجن للعمل.. فهل أداء الامتحان في كلية أو مدرسة يهين كرامة النزيل وينال منها؟؟

إنني لا أعتقد ذلك على الإطلاق، بل أعتقد العكس، لأن النزيل الذي يصر على مواصلة التعليم، وتثقيف نفسه، مثله كمثل المريض الذي يبذل غاية جهده كي يتعاون مع طبيبه أثناء العلاج، وهذا شيء لا يتنافى مع الكرامة إن لم يزيد منها وينميها..

وقد يقال إن ملابس السجن فيها شيء من الإحراج الذي يسبب الألم للنزيل، ربما يكون هذا صحيحًا، ولهذا أوصى مؤتمر جنيف بأن يلبس النزيل ملابس عادية (وليست ملابس سجن) إذا ما خرج لأداء مهمة ما، ولا غبار إطلاقًا على تنفيذ قرار مؤتمر جنيف الذي كانت مصر أحد أعضائه..

هذا ما نؤمن به بخصوص مشكلة الامتحانات في السجون، ولكي نستكمل ما نحن بصدده من بحث، أحب أن ألفت النظر لنقطة مهمة، وهي أن بعض نزلاء السجون قد يكونون مقيدين في الكليات العملية مثل العلوم والطب والصيدلة مثلًا، وهؤلاء من الصعب عليهم تأدية الامتحان داخل السجن، لأنهم

يحتاجون إلى المعامل المختلفة، وقد يحتاجون إلى المشارح والمتاحف العلمية وما إلى ذلك..

وهذا لن يتيسر إطلاقًا داخل السجن، ولن نستطيع التغلب عليه إلا بالسماح للنزيل كي يتردد على هذه الكليات العملية كما كان يحدث قبل ذلك في السجون المصرية..

أما ما تحتاجه الجامعة من تكاليف ومصروفات واحتياجات خاصة، فهذه يجب على النزيل القيام بسدادها شأنه شأن أي ملتحق أو منتسب بالجامعة في خارج السجن..

***

وهناك نوع من التعليم الفني ينضوي تحت ما نسميه هنا «بالتعليم المدرسي»، والتعليم الفني ألزم ما يكون بالنسبة لمن هم في «التأهيل المهني»، فلا بأس أبدًا إذا كان النزيل في قسم النجارة مثلًا أن يدرس وينال شهادة دبلوم في فن النجارة، شأنه في ذلك شأن طلبة التعليم الصناعي المتوسط في الخارج، لأن مثل هذه الدراسات، ستجعل تأهيله المهني يقوم على أصول وقواعد علمية ثابتة دقيقة، وخاصة إذا كان النزيل عنده من الثقافة السابقة، والتعليم الكافي ما يؤهله لنيل هذه الدبلوم الفني كما هو متبع خارج السجن، وسيكون هذا مدعاة لجدية الأمر، وذا جدوى كبيرة بالنسبة لمستقبل النزيل بعد الإفراج عنه.. ويساعد على تنفيذ ذلك إذا كانت مدة السجن طويلة..

هـذا ولا يخفـى عـلى القـارئ أن وقـت الفـراغ الطويـل في السجن خاصة في الليل سوف يعطي النزيل فرصة طيبة للدراسة والتعمق، كما أن هـذه الدراسة التي سيغرق فيها النزيل سوف تعوضه الكثير عما فاته من فرص، ولن تترك له فرصة للتفكير في سجنه وآلامه ووضعه في المستقبل، وبالتالي ستخفف من العقد النفسية التي كثيرًا ما يتعرض لها، وسوف تصرفها بدرجة ما عن الانحـراف والـشذوذ الـذي يكـون لـه أسـوأ الأثـر في سـلوكه ووضعه الاجتماعي، والذي يترك في ذهنه ونفسيته أخاديد غائرة ليس من السهل محوها أو نسيانها نسيانًا تامًا..

3- التثقيف العام:

ونعني به ذلك النوع من الثقافة الذي يتناول شئون الحياة وما فيها من تجارب ومشاكل وصراع وظواهر عدة، والذي يتناول أحوال الوطن والعالم بصفة عامة، ولا شك أن الإلمام بمثل هـذه المعلومات المختلطة من فنون وسياسة وقوانين المجتمع، وما إلى ذلك ستزيد من سعة مدارك النزيل، وتعمق نظرته إلى الوجود والناس فيأتي ذلك عليه بالخير الكثير..

والوسيلة إلى ذلك تشمل فروعًا كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال الأشياء الآتية:

المكتبات:

إن تنمية مكتبات السجون، وتزويدها بالكتب النافعة ذات الألوان المختلفة وحفز القارئ على الاطلاع عليها واستيعابها لما يفيده فائدة جليلة ويصل لها إلى الغرض الذي نهدف إليه..

فليقرأ النزيل مثلًا شيئًا من أزجال بيرم التونسي التي تتناول المشاكل الاجتماعية المختلفة بأسلوبه الفكاهي الشعبي، والتي تتناول كفاحنا السياسي الوطني ضد المستعمرين، وليقرأ بعض القصص الشيقة - والقصص لا شك لها سلطان كبير على النفوس- فمثلًا قصة عودة الروح لتوفيق الحكيم وما شابهها مليئة بدروس الوطنية المفيدة، وقس على هذين المثالين باقي الأغراض والألوان الأدبية والعلمية الجادة..

السينما والمسرح:

وهذان لهما عميق الأثر في نفوس النزلاء، وخاصة تلك المسرحيات والتمثيليات التي تعالج مشاكل الجريمة وتنفر منها، وترسم كفاح الأفراح في معركة الحياة من أجل لقمة العيش الشريفة، لا كما تفعل الأفلام الأمريكية التي تضفي فوق اللصوص والسفاكين في الروايات المسلسلة احترامًا وتقديسًا يأتيان بأسوأ النتائج..

ولقد تكلمنا من قبل عن المسرح، وأشرنا إلى ما يلزمه من تشجيع وتحسين واهتمام زائد لكونه أداة فعالة في تربية النفوس، ولا شك أن النزلاء في حاجة إلى زيارات متكررة تعرض فيها أهم الروايات وأنفعها، ولن تجد أحسن من وزارة الثقافة للقيام بهذه المهمة الخطيرة، هذا بالإضافة إلى إنشاء مسرح دائم في كل سجن، على أن ترصد له الإمكانيات اللازمة.

الإذاعة والصحف والمجلات:

وهذه الثلاثة تؤدي وظائف متشابهة متداخلة في مجال التثقيف العام وحتى يكون النزيل على اتصال وثيق بالمجتمع الخارجي وأحداثه وتقلباته، فإذا ما خرج إليه خفت حدة الغربة والوحشة التي يحسها المفرج عنه، وشعر بالاندماج السريع في هذا المجتمع، وسرعة الاندماج لها فائدتها في إعادة الحياة الطبيعية عند النزيل، وفي مسح كثير من الرواسب والعقد النفسية والاضطرابات التي تلازمه منذ دخوله السجن إن لم يكن من قبله.

المحاضرات العامة:

وهذه يدخل فيها محاضرات الوعظ الديني السليم الأداء، والذي يحتوي على التوجيه الصادق، الخالي من الخرافات والأساطير والمبالغات الممجوجة، كما يتناول محاضرات أخرى تشتمل على شتى الموضوعات التي أشرنا إليها في النقاط السابقة من سياسة وفنون واجتماع وما إلى ذلك..

الندوات والدراسات:

السماح لبعض النزلاء ذوي المواهب والاستعداد الفكري المناسب في الاشتراك في الندوات العامة، وتشجيعهم على القيام ببعض الدراسات التي تتعلق بمشاكل السجن العديدة، وإمدادهم بالمراجع اللازمة، حتى نشركهم في حل مشاكل

مجتمعهم، ونربي فيهم الشخصية العلمية الأصلية، وخاصة أنهم سيكتبون أو يتكلمون عن مجتمع يعيشون فيه بأنفسهم، ويلبون احتياجاته ونقائصه من وجهة نظرهم الخاصة، وسنجني ولا شك من وراء ذلك أرباحًا كثيرة..

* * *

الفصل الثامن
مِن هُنا وَهُناك

إننا سنتعرض في هذا الفصل لبعض الأمور المهمة في إيجاز حتى نتوقى النقص الذي يهدد ما كتبنا إذا ما أهملنا هذه الأمور، ومن الأمور الجديرة بالدراسة والاعتبار مشكلة الفصل بين فئات النزلاء.

1- الفصل بين النزلاء:

في المستشفيات يحاول الأطباء الفصل بين طوائف المرضى، فلا يصح أن يوضع مريض بالسل مع آخر مصاب بتضخم في الطحال، لأن من السهل جدًّا أن ينتقل مرض السل إلى مريض الطحال، فتتعقد حالته الصحية، وتهدد أيامه الباقية بالفناء السريع.. وكذلك عمد المسئولون عن الصحة إلى فصل المصابين بالحمى عن غيرهم من المرضى وذوي البنية السليمة، لأن الحمى مرض وبائي سهل الانتشار، والخسائر في المال والأرواح ستكون جسيمة إذا لم يراع الأطباء هذا الفصل بين المرضى أنفسهم، وبين الأصحاء والمرضى.

كذلك الحال بالنسبة للمجرمين الذين يوضعون داخل السجون.

إن المحكوم عليه في قضية سرقة من السهل إذا ما وضع وسط طائفة من المحكوم عليهم في قضايا المخدرات أن يتعلم منهم تعاطي هذه السموم الفتاكة، فيخرج من السجن لا لصًّا فقط، ولكن يصبح مدمنًا للمخدرات أيضًا..

وحتى مجرد وضع اللصوص ذوي الخطورة المختلفة مع بعضهم -أمثال المحبوسين لأول مرة مع أرباب السوابق ومعتادي الإجرام- هذا كفيل بأن يتعاطى اللص المبتدئ دروسًا أعمق وبتجربة أخطر، فيتخرج من السجن وقد ألم بمصطلحات الفن -فن السرقة- ودقائقه وتفاصيله..

كما أن وضع المصابين بالانحراف أو الشذوذ الجنسي مع غيرهم مع النزلاء مدعاة لانتشار هذه العادة الخبيثة بينهم، وتعريض أخلاقهم للتلف والتدهور والانحطاط، مما يجعل السجن عند طائفة منهم ضرورة ملحة لا يستطيعون الفكاك منها، أو نسيانها نسيانًا تامًا..

وكذلك وضع كبار السن مع غيرهم من الفتيان والغلمان الأصغر سنًا يجعلهم يتعرضون لشتى التأثيرات سواء بالتهديد أو الاغراء، فينحرفون خلقيًا، فكما سبق ورأينا أن بعضهم يرغم إرغامًا على الشذوذ، والبعض الآخر يقع تحت سيطرة مجرم عتيد أو لص خطير فيترأسهم ويبعثهم هنا وهناك داخل السجن كي يسرقوا أي شيء ويأتوا به إليه، وقد رأيت بنفسي أمثال هذه الصور في أكثر من مناسبة...

أما المحكوم عليهم في جرائم الرأي أو جرائم ضد أمن الدولة فإن وضعهم ضمن اللصوص والسفاكين وهاتكي العرض فيه شيء من الإجحاف بهم وبكيانهم ووضعهم الفكري، ولا شك أن التسوية في المعاملة رغم اختلاف الجرائم

المنسوبة للنزلاء سياسة فيها كثير من الارتجال وعدم التوفيق، ولا شك أيضًا أن عدم مراعاة الوضع الاجتماعي والفكري والصحي والنفسي عند تنفيذ عقوبة السجن أمر يدعو إلى الغرابة والدهشة، لهذا نقترح الآتي:

(أ) الفصل مبدئيًا بين أصحاب الجرائم المختلفة فلا نجمع بين السارق وتاجر المخدرات.

(ب) الفصل بين أصحاب الجريمة الواحدة، فلا يوضع السارق المعتاد الإجرام مع الذي يسرق لأول مرة.

(جـ) عزل صغار السن عن كبار السن حتى لا يكون هناك مجال للتأثير بأي وسيلة.

(د) عزل أصحاب الجرائم السياسية عن باقي النزلاء.

(هـ) مراعاة الطبقة الاجتماعية للنزيل عند الفصل وعند التسكين، حتى لا يكون للمال أو المركز الاجتماعي تأثير على باقي النزلاء، وليس معنى ذلك الدعوة إلى التمايز الطبقي، في وقت يزحف فيه مجتمعنا نحو العدالة الاجتماعية، ولكن ما ندعو إليه ما هو إلا استجابة لشتى الظروف والملابسات وللوضع الحالي في مجتمعنا..

(و) قيام منشآت خاصة للشواذ جنسيًا، وللمصابين بالعته والبله، وكذلك أصحاب العقد النفسية، والعجزة، فقد رأيت

في سجن أسيوط نزيلًا اسمه أحمد عبد المنعم [1] يبلغ من العمر 110 سنة (مائة سنة وعشرة) ومع ذلك يعيش مع غيره من النزلاء ويقوم بكل حاجياته بنفسه، وهو في هذه السن الكبيرة، والصحة المتداعية..

(س) العمل على إقامة المؤسسات العقابية المفتوحة، وخاصة للمحكوم عليهم بمدد قصيرة، ولمن دخلوا السجن لأول مرة، وكان استعدادهم الخلقي يدعو إلى الثقة والاطمئنان، ولا شك أن مثل هذه المؤسسات لن تدع الفرصة للنزيل كي يندمج في أوساط عتاة المجرمين، وأرباب السوابق والذين يخشى منهم في التأثير عليه، والاتجاه به وجهة غير سليمة..



إن مسألة الفصل بين طوائف النزلاء، أمر مهم، لا يقل خطورة في نظرنا عن فصل أصحاب الأمراض المعدية الخطيرة عن غيرهم، لأن العدوى الوبائية عامل مشترك أعظم في كلتا الحالتين، وإن اختلفت ماهية هذه العدوى وخطورتها، وقد يكون من السهل علاج مرضًا جسميًا في أيام قلائل، أما المرض الإجرامي أو النفسي فقد يحتاج إلى سنين طويلة، وفي النهاية قد يشفى وقد لا يشفى على الإطلاق..

(1) قامت «مجلة آخر ساعة» بعمل ريبورتاج صحفي لهذا النزيل..

فتعريض النزلاء لمثل هذه الحالات الضارة نوع من المغامرة لا يقرها عقل، وضرب من الإهمال الذي لا يجد له ما يبرره، ما دمنا قد عرفنا المشكلة، وفهمنا مدلولاتها ونتائجها الخطيرة..

2- مباني السجون[1] :

إن مباني السجون المصرية الآن لا تتفق بأي حال من الأحوال مع النظرة الإصلاحية الحديثة إلى النزلاء، وإلى الدور الذي يجب أن تقوم به الدولة إزاء هؤلاء الذين قد حكم عليهم أن يعيشوا في عزلة عن المجتمع، كما أنها لا تتفق أيضًا مع حركة النهضة السياسية العامة والاجتماعية والفكرية..

وأول مأخذ يبدو لنا إذا ما نظرنا إلى السجون المصرية هو أن ها ضيقة لا تتسع بحال من الأحوال لعدد الوافدين عليها من حين لآخر فكان نتيجة لهذا الازدحام مشاكل عدة قد تعرضنا لها باختصار فيما سبق، فالسجن الحديث يجب أن يتفق مع المقترحات التي قدمنا بعضها فيما سبق، فهل نكتفي بورشة النسيج والورش الصغيرة الأخرى التي أقيمت على حالة من الإهمال والفوضى، فورشة النجارة لا تكاد تتسع للأدوات اللازمة وأربعة أو خمس من النزلاء وكذلك ورشة الحدادة والورش أيضًا من الناحية الصحية تحتاج لمزيد من العناية والدقة..

---

(1) انظر ما كتبه القائمقام ياسين الرفاعي في تقريره عام 1955.

إن المباني الجديدة في السجون يجب أن تصمم على أساس أن السجون سوف تكون مؤسسات للإنتاج الصناعي المنظم، ومراكز للتأهيل المهني المنوع، ويجب أن تزود بالمدارس اللازمة لمحوا الأمية وبالمسارح التي بسطنا رسالتها فيما سبق، وأن تزود أيضًا ببيوت الله لإقامة الشعائر الدينية على صورة مقدسة تدعوإلى الاحترام والخشوع، وأن يعمل حساب بعض الألعاب الرياضية الضرورية..

وهناك مجال كبير لتوسيع المباني الخاصة بالسجون وذلك راجع إلى فئات المسجونين الذين سيقيمون فيها، وراجع أيضًا إلى تباين التأهيل المهني من زراعي وصناعي..إلخ.

وهناك بعض التفصيلات التي لا تتسع لها هذه العجالة، مثال ذلك إنشاء السجون في المناطق التي تحتاج إلى الإصلاح الزراعي، وتحويل الأرض البور إلى أراضي صالحة للزراعة، وأن يختار لمثل هذه السجون فئة المسجونين الزراعيين.

كذلك في الإمكان إنشاء بعض السجون في أماكن تصلح لأن تكون مراكز للإنتاج الصناعي، على غرار ذلك الذي ذكرناه بشأن الإصلاح الزراعي، ولا بد أن يراعي بالطبع أن يكون النزيل قريبًا من مسقط رأسه بقدر الإمكان، حتى تتيسر له وسائل رؤية أهله في الزيارات، أو على الدولة أن تسمح للزائرين بالسفر المجاني إذا كانوا بعيدين عن مكان السجن المختار لهم.

3- مشكلة الأخصائيين الاجتماعيين:

إن الحركة الإصلاحية الحديثة في سجون العالم تعتمد إلى حد كبير على الأخصائيين الاجتماعيين، وعلى مقدار فهمهم لرسالتهم والتطبيق العملي لها، ومعظم النتائج القيمة التي وصل إليها الجهاز العقابي في بعض الدول المتقدمة كالسويد مثلًا يرجع الفضل الأكبر فيها إلى هؤلاء المشرفين الاجتماعيين، ولهذا يرى قادة الحركة الإصلاحية في العالم أن يثقف كل من يقومون بوظيفة ما في السجون بشيء من الثقافة الاجتماعية على أقدار متفاوتة، ولهذا السبب أيضًا رأى مؤتمر جنيف لبحث الجريمة أن عدم تخصص العسكريين وعدم إلمامهم إلمامًا كافيًا بأصول الإشراف الاجتماعي مدعاة لإحلال المدنيين محلهم، واتخذ المؤتمر قرارًا بذلك اعترضت عليه مصر وشيلي وأبدتا بعض الأسباب لاعتراضهما..

ودور الأخصائي الاجتماعي دور خطير، لأنه هو ومن معه سوف يستقبل السجين، ويدرس ميوله واتجاهاته، ويعلم الكثير عن جريمته وظروفها، وبالطبع سوف يلم بملابساته المعيشية والعائلية والمسئولية الملقاة على عاتقه في ماضي حياته وحاضرها ومستقبلها..

وعمل المشرف الاجتماعي يعتبر جزءًا مهمًا يضاف إلى عمل الطبيب النفساني والطبيب البشري والواعظ والمدرس ورئيس الورشة ومعاملة السجانين وما إلى ذلك، لهذا وجب أن ينسجم

وأن يتآزر الإشراف الاجتماعي مع غيره من النواحي الأخرى، حتى لا يحدث ارتباك في مجال العلاج والإصلاح، لهذا كانت الرسالة الملقاة على عاتق الأخصائي الاجتماعي كبيرة، ولهذا كان إلمامه بها، وتقرره لأثرها البالغ أمر عظيم الأهمية.

فإلى أي درجة وصلت سجوننا المصرية في مجال الإشراف الاجتماعي؟

إن النشاط الاجتماعي في السجون المصرية يرأسه واحد له وكيلان، وهناك في سجن القاهرة مشرف اجتماعي واحد، وكذلك في ليمان طره... أي أن الرسميين خمسة فقط، وباقي السجون ينتدب لها أخصائي اجتماعي من وزارة التربية والتعليم وهذا بدوره يزور السجن لمدة ساعتين في اليوم على أساس مرتين في الأسبوع فقط..

ولك أن تتصور كيف تكفي هذه الساعات الأربع كل أسبوع لدراسة حال المسجونين ومطالبهم وظروفهم والمناسب لهم من التصنيع والتأهيل في السجن..

وهل في إمكان أخصائي سجن القاهرة وليمان طره كل على حدة أن يقوم بما يتطلبه هذا العدد الضخم من السجناء من الرعاية والدراسة والوصول إلى نتائج مجدية حاسمة؟؟ لا أظن ذلك.. إن الإشراف الاجتماعي في مصر ما زال قاصرًا..

وعـدد القـائمين بـأمره يثـير الـضحك والعجـب في نفـس الوقت..

ثـم التـأثير الفعـلي للنـشاط الاجتماعـي هـو الآخـر مـا زال لا يساوي شيئًا داخل السجون.. إن المشرف الاجتماعي يجلس في مكتبه، وقد تجد كثيرًا من التصرفات الإدارية التي تتعارض مع ما يفهم من أمور، وتخالف ما ندعو إليه من إصلاح، ومع ذلك يقف المشرف الاجتماعي جامدًا، ويربأ بنفسه أن يثير المشاكل، ويصطدم بالإداريين..

وقليلًا ما يغوص المشرف الاجتماعي في السجون المصرية إلى أعـماق حيـاة الـسجين والمـشاكل اليوميـة التـي تعترضـه، لأن المشرف لا يكاد يغادر عتبة مكتبه، ويكتفي بالعمل على الحصول على بعض الحاجات المالية لذوي الحاجات والعوز من المفرج عنهم..؟



وباختـصار، فـإن العمـل المنـوط بالمـشرف الاجتماعـي يحتـاج لمزيد من الاهتمام إن كنا جادين فعلًا فيما نزعمه من إصلاح وعلاج لمشكلة الجريمة ومستقبل مرتكبيها..

4- مشكلة المخدرات:

إن قـوانين المخـدرات في بلادنـا صـارمة، بالنـسبة لكـل مـن التـاجر والمتعـاطي عـلى الـسواء، وصرامـة القـوانين الخاصـة

بالمخدرات لا أعزوها إلى قسوة في بلادنا تغمر القلوب، ولا أعزوها إلى تأخر في نظرتنا للسجين، لكن الواضح أن هذه الصرامة تحمل في طياتها عزمًا أكيدًا وإصرارًا حاسمًا على القضاء على هذه السموم بمعاقبة كل من يتعاطاها أو يتجر فيها أو يهربها إلى بلادنا، وخاصة أن إسرائيل تلعب دورًا خطيرًا في تفاقم هذه المشكلة لغرض سياسي واقتصادي، إذ لا شك أنها تكسب من وراء ذلك مبالغ طائلة جدًا، وفي نفس الوقت تعمل هذه السموم عملها في نفوس المواطنين وفي أبدانهم وصحتهم العامة، وفي إنتاجهم وإقبالهم على العمل كذلك، فضلًا عن أثرها في خفض مستوى معيشة المدمن، والخطورة واضحة أيضًا نظرًا لزيادة عدد المدمنين في بلادنا، فكثيرون أولئك الذين يفلتون من رقابة القانون..

لكن هل صرامة القوانين قضت على مشكلة المخدرات؟؟

هل ابتعد التاجر عن الاتجار في هذه السموم الفتاكة؟؟

هل شفي المدمن من إدمانه نتيجة العقاب القاسي الذي أصابه من جراء وضعه في السجن؟؟

أقول بصراحة.. إن التاجر في خارج السجن يظل تاجرًا أيضًا داخل السجن سواء أكان تحت التحقيق أو حكم عليه فعلًا، وعجيب أمر ذلك التاجر المتحفظ عليه تحت التحقيق، فلا يكاد يصبر على عدم الاتجار حتى يرى ما مصيره..



والمدمن خارج السجن يظل مدمنًا داخل السجن أيضًا، أما المفرج عنه فتكون أولى حفلات الاستقبال التي يستقبل بها في الخارج هي حفلة تتصاعد في جوها أبخرة الحشيش الزرقاء..

فالمشكلة إذن ما زالت موجودة رغم الصرامة والعزم الأكيد، ولقد ميز القانون بين التاجر والمتعاطي، وهذا التمييز ضرورة لا بد منها، لكنها انصبت على تشديد العقوبة على التاجر وتخفيفها على المدمن أو المتعاطي، وكنا نود أن التفرقة بين الاثنين -التاجر والمستهلك- تسير في خط غير هذا الخط. ونقصد بذلك أن ننظر إلى المتعاطي نظرة فيها شيء من العطف والرعاية كأن ننشئ المصحات الخاصة بمدمني المخدرات لا أن نقذف بهم داخل السجن، ولقد تبين لي أن السجن لا يمكن أن يكون علاجًا ناجعًا لمدمن الأفيون مثلًا، بل إن الإنسان المسلوب الحرية يبحث عن شيء يعوضه عن هذه الحرية المفقودة فلا يجد أقرب إليه من إشباع نهمه، والإقبال على هذه المادة المخدرة التي يحس أن فيها كثيرًا من السلوى والعزاء ولا بأس أبدًا أن ترغم الدولة المدمن على أن يدفع نفقات علاجه إذا كان ميسورًا الحال، ولا بأس أيضًا أن تكون مصحات المخدرات في حالة وسط بين المصحة والسجن، لأن مثل هذه المصحات تحتاج إلى التشديد والرقابة اليقظة حتى لا تتسرب هذه المخدرات إلى المرضى فتفسد علاجهم.

والطريقة المعترف بها علميًا بالنسبة لمدمني المورفين الأفيون مثلًا أن يوضع المريض (المدمن) في المصحة وأن يسمح له في بداية الأمر بكميات من المخدر، ثم تتناقص هذه الكمية المسموح بها يومًا بعد يوم حتى تقطع فجأة.. وفي أثناء ذلك يعمل حساب الاضطرابات المختلفة التي تحدث للجسم عقب انقطاع المخدر عنه، ولهذا يحرص الأطباء على إعطاء المريض المقويات العامة وعلاج بعض الاضطرابات العارضة كالأمغاص والقيء والآلام المختلفة كالصداع والأرق وفقدان الشهية وما إلى ذلك..

ولا بد من محاولة تقوية الإرادة لدى المدمن حتى ينجح في معركته، ويستعان على ذلك بشرح أضرار المخدرات وما تجلبه من خسائر مادية ومعنوية، والقضاء على الأكاذيب والأوهام التي تثار حول المخدرات ومفعولها السحري المزعوم..



وأساس البلاء كله، ومصدر الرذيلة والوبال هم المهربون، ولهذا يجب أن ينص على عقوبة الإعدام لهذه الطائفة من المغامرين، وعشاق الثراء، وعبيد المال، دون نظر للأضرار التي تلحق بمواطنيهم، فالقضاء على المهربين ما هو إلا تحطيم لحلقة الاتصال التي تلتقي عندها مطامع المهربين والتجار..

ولا شك أن التصدي للمهربين ومطاردتهم والتضييق عليهم مع القسوة في معاملتهم سوف يوفر علينا الكثير من المتاعب والإجراءات داخل البلاد.. لقد كان الأفيون وسيلة سافلة من وسائل الاستعمار الإنجليزي في الصين، حيث استنزفت أموال الشعب وأقواته وطاقته هناك، وكانت ثورة الأفيون -أو حرب الأفيون- الصينية من أبرز أحداث تاريخها الكفاحي، وكان القضاء على هذا الوباء نصرًا أي نصر..

أما صغار التجار وكبارهم فإن سجنهم ومصادرة أملاكهم التي حصلوا عليها من جراء الاتجار فإني أعتقد أن هذا فيه الكفاية.. غير أن المهم في الموضوع هو معاملة المدمن معاملة المريض الذي يلتمس الشفاء على خلاف المهربين والتجار، وهذا ما يجب أن يلتفت إليه المسئولون..

وثمة شيء آخر...

لقد ثبت أن الخمر هي الأخرى لا تقل في تأثيرها السيئ على الجسم والنفس عن المخدرات، وهذه حقيقة علمية ثابتة لا جدال فيها، بل لعلها أشد فتكًا، وأخطر أثرًا من الحشيش فتركها إذن حرة للتداول أمر عجيب فعلًا، أم أن ما تدره من ضرائب سيجعلنا نتردد؟؟ وهل إباحتها في شتى بلدان العالم، وجريان

ذلك مجرى العرف والتقاليد مانع لنا عن التصدي لها؟؟ وهل وجود الأجانب بين ظهرانينا واستمساكهم بها يبعث على التمهل والتردد؟؟؟

هذه أمور يجب البت فيها جنبًا لجنب مع مشكلة المخدرات حتى يكون الحل متكاملًا..

5- الصحة العامة:

إن الأماكن العامة التي يحتشد فيها عدد كبير من الناس كالمدارس أو السجون مثلًا في مسيس الحاجة لمزيد من الرعاية الصحية والوقاية من الأمراض، وخاصة المعدية منها، وأول هذه الأماكن احتياجًا إلى الرعاية الصحية السجون..

وهناك بعض الأوضاع غير الصحية، وهي لا تخفى على أحد ممن يزورون السجون، ومع ذلك فهي ما زالت على وضعها السيئ الضار، دون أن تتناولها يد الإصلاح، فمثلًا إذا دخلت إحدى الحجرات الكبيرة التي يسكنها ما يقرب من عشرين نزيلًا فماذا تجد؟؟

ستجد أن جردل الماء مشاعًا للجميع، كل من شاء أن يشرب فما عليه إلا أن يطأطئ رأسه، ويهوى بفمه على الجردل ويعب منه عبًّا بطريقة بدائية عجيبة، وإذا تصادف وكان هناك كوبًا للشرب من الصفيح أو غيره فإن الجميع يتداولونها، وقد يكون فيهم من

هو مصاب بالسل أو التهاب رئوي أو أنفلونزا... أو.... أو... إلخ. أما إعداد الطعام ففيه كثير من الإهمال والفوضى، حتى المياه هي الأخرى، وما زلنا قريبي العهد بحادث التسمم الذي تعرض له نزلاء ليمان طره لقذارة مياه الشرب، وراح ضحية الحادث عدد من النزلاء...

يضاف إلى ذلك عدم كفاية الملبس والغطاء والمفرش وخاصة في فصل الشتاء، مما يجعل النزيل سهل الإصابة بأمراض الروماتيزم والأنفلونزا ومضاعفاتها..

أما الثقافة الصحية بين النزلاء فهي منحطة جدًا، يدل على ذلك بصاقهم وتمخطهم في الطرقات وفي الورش وفي الحجرة التي يعيشون فيها، وإن صورة هذه القذارة لتزداد بشاعة إذا علمنا أن أغلبهم من الحفاة، ثم إن عدد قطع الصابون التي توزع عليهم قليلة لا تكاد تكفيهم، لهذا فإن الأمراض الجلدية منتشرة بينهم بصورة أكثر من الخارج..

ولا شك أن الازدحام الناتج من جراء الزيادة المطردة في عدد المسجونين مع بقاء السجون على ما هي عليه له هو الآخر آثاره الخطيرة..

6- معدل التطور:

إن الإيمان بالنظرية الإصلاحية الخاصة بالسجون أمر واجب يجب أن يملأ قلوبنا ونفوسنا ويدفعنا إلى العمل المتصل والكفاح المستمر، ومما يثلج الصدر أن أغلب المهيمنين على شئون الجريمة والسجون يكادون يجمعون على الإيمان بهذه النظرية الإصلاحية، لكن هناك فرق كبير بين الإيمان بالشيء وتنفيذه، بل إن الإيمان الذي لا يصحبه العمل هراء وادعاء.

ومما لا شك فيه أن العمل على الوصول إلى المستوى المنشود للسجون -يحتاج إلى تنسيق وتنظيم، ويحتاج إلى مراعاة شتى الاعتبارات والظروف الخاصة بنهضتنا، إذ يجب أن تسير حركة التطور في السجون جنبًا إلى جنب مع حركة الوعي التحرري والنموا لاقتصادي، والتقدم السياسي.

أما روح العداء والانتقام والتشفّي بالنسبة للسجون فتلك سياسة عتيقة عفا عليها الزمان، وأصبحت مجرد فصل من فصول الماضي البغيض المليء بالمآسي والأحزان..

إننا على أبواب فجر مشرق وضيء، بل إن أضواء هذا الفجر قد تسللت فعلًا إلى نواحي عدة من حياتنا، وليس من المعقول أن نحجب هذه الأضواء عن سكان السجون مهما كانت أسوارها سميكة، ومهما كانت قضبانها قاسية، ومهما كان وزر

المجرم كبيرًا.. أجل.. فالمجرم إنسان.. وسيظل إنسانًا إذا ما اتسمت نظرتنا إليه بالعطف والحنان والثقة..

***

عدد المحكوم عليهم الذين وردوا للسجون عام 1962 حسب المهن قبل الإيداع بالنسبة لكل جريمة

المهنة	عدد المجرمين في مختلف الجرائم
تاجر	1840
بائع	3013
موظف حكومة	301
موظف أهلي	257
طالب	222
عامل صناعي	9662
عامل زراعي	6670
عامل خدمات	11867
مزارع	18
صاحب أملاك	15
مجند	2973
عسكري أو خفير	2472



المهنة	عدد المجرمين في مختلف الجرائم
مهن أخرى	859
متقاعد	309
عاطل	2704
أنثى غير مشتغلة	2959

***

المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال عام 1963

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعداي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
عاهة مستديمة	625	99	3	–	–
غش ألبان	403	38	–	–	–
غش مأكولات	39	4	–	–	–
غش موازين	6	1	–	–	–
فسق	711	48	1	–	–
فعل فاضح	29	5	3	1	–
فك أختام	4	4	–	–	1
قتل عمد	443	65	–	2	4
قتل خطأ	168	137	1	1	–
قمار	317	53	–	–	–

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعداي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
مبادئ هدامة	-	5	1	10	7
مخالفة مراقبة	1946	384	4	-	-
مخدرات اتجار	882	202	1	1	-
مخدرات تعاطي	81837	374	2	4	1
مظاهرات	4	2	-	-	-
نصب	63	38	1	-	1
نفقة	466	137	1	-	6
هتك عرض	97	33	3	-	-
هروب من	319	379	19	10	1

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعداي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
الخدمة					
هروب من السجن	5	2	-	-	-
جنح أخرى	2199	282	3	-	-
عدم حمل بطاقة شخصية	18	16	2	-	2
حبس بدل غرامة	67	94	9	-	-
جنايات أخرى	895	150	-	-	-
تعدي ومقاومة	108	33	-	-	-

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعداي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
تعذيب أشخاص	2	-	-	-	-
تعطيل مواصلات	21	9	-	-	-
تموين وتسعيرة	643	255	3	-	-
تهديد	12	7	1	-	-
تهريب أموال	43	7	1	-	-
حريق بإهمال	5	3	-	-	-
حريق عمد	6	1	-	-	-
خطف	39	-	-	-	-
دخول الأراضي	6	2	-	-	-

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعدادي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
المصرية					
دخول منزل لجريمة	98	18	1	1	-
دعارة	347	47	-	1	-
رشوة	42	93	-	12	3
ركوب قطار بلا تذكرة	106	4	-	-	-
زنا	17	9	-	2	-
سرقة جناية	496	181	4	4	1
سرقة جنحة	4953	1931	14	11	3
شروع في سرقة جنحة	171	23	-	-	-
شروع في سرقة جناية	1649	449	2	3	1
شروع في	227	44	-	-	-

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعداي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
قتل					
شهادة زور	32	1	-	-	-
شيك بدون رصيد	34	36	2	-	-
ضرب أفضى إلى موت	568	29	1	-	-
ضرب جنحة	625	86	-	-	-

المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال عام 1963 موزعون حسب الحالة التعليمية في كل جريمة

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعدادي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
اتفاق جنائي	8	2	-	-	-
إتلاف مزروعات	23	5	-	-	1
إتلاف منقول وعقار	24	9	-	-	-
احتيال	39	23	-	1	1
اختلاس	137	125	6	16	3
إحراز أسلحة	729	111	1	1	-
إخفاء	297	66	1	-	-

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعدادي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
مسروقات					
استعمال القوة	46	8	–	–	–
اشتباه وعود له	312	54	–	–	–
إصابة خطأ	90	48	1	–	–
آداب (أخرى)	66	38	1	–	–
أمن خارجي	1	1	–	–	–
أمن داخلي	5	16	–	–	9
إهمال عساكر وخفر	1310	873	4	–	–

الجرائم	أميون	يقرأون	مؤهل ابتدائي وإعدادي	مؤهل متوسط	مؤهل عالي
إهمال مجندين	1118	981	9	5	-
بلاغ كاذب	3	1	-	-	-
تبديد	2354	377	2	3	2
تزييف نقود	9	15	-	-	-
تزوير جناية	105	81	5	6	5
تزوير جنحة	60	31	-	4	3
تسميم وقتل مواشي	-	-	1	-	-
تسول	8312	573	1	-	-
تشرد	21	1	-	-	-



المحكوم عليهم الواردون للسجون خلال 1963
حسب الحالة الزوجية

الحالة الزوجية	عدد المجرمين في مختلف الجرائم
متزوج	21264
لم يتزوج	22096
مطلق	1438
أرمل	1319

المحكوم عليهم والواردون للسجون خلال 1963 حسب عدد الأشخاص المعولين بالنسبة لهم

الأشخاص المعولين	عدد المجرمين على اختلافهم في الجريمة
من يعولون شخصًا واحدًا	2495
من يعولون شخصين	3293
من يعولون من 3-5 أشخاص	6758
من يعولون أكثر من خمسة أشخاص	2120

عدد الواردين للسجون خلال 1963
حسب سنهم وقت الإيداع

السن	عدد المجرمين
عشرون سنة فأقل	8009
من 21–30 سنة	17260
من 31–40 سنة	9964
من 41–50 سنة	5428
من 51–60 سنة	3266
أكثر من ستين سنة	2190

***

المحكوم عليهم الواردون خلال 1963
حسب أنواع الأحكام

* إعدام	21
* أشغال شاقة	
أ - مؤبدة	213
ب - عشر سنوات فأكثر	268
ج - 3-10 سنوات	1896
* سجن وحبس	
أ - أكثر من ثلاث سنوات	1648
ب - أكثر من سنة إلى 3 سنوات	878
ج - أكثر من 2/1 سنة إلى سنة	3162
د - أكثر من 3 - 6 شهور	5136
3 شهور فأقل	31847
بدل غرامة	1048
الجملة	46117

* * *

الفهرس

***